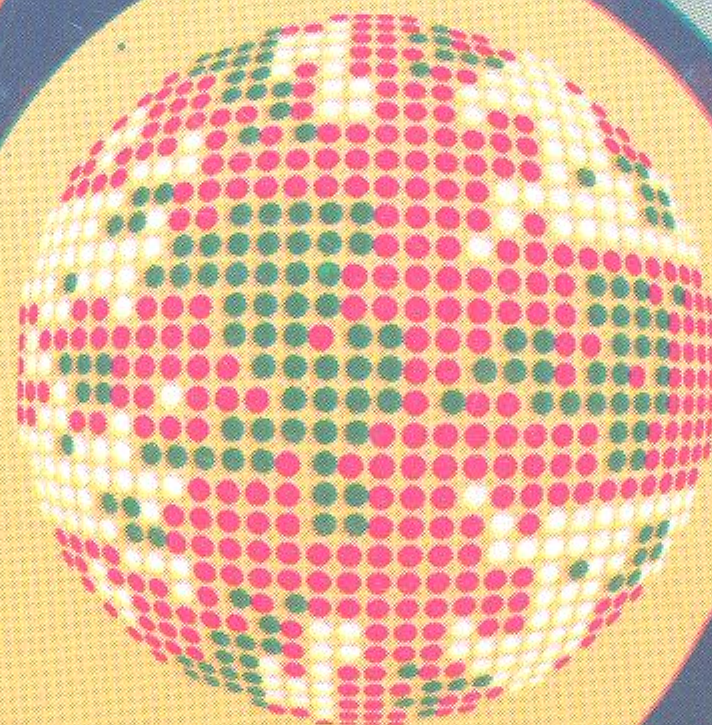
أولو العزم من الرسل

تأليف

محمد حمدي عبد الحميد
(أبو حاتم)



أولو العزم من الرسل

تأليف

محمد حمدي عبد الحميد
(أبو حاتم)

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية

٢٠٠٨ / ٤٧٢١

الترقيم الدولي

I S B N 977– 17 – 5477 –7

طبع بمطبعة مؤمن

شارع أحمد عرابي

أمام المجلس المحلي ببنىسويف

الإهداء

إلى .. حب الحب

إلى .. روح القلب

إليك .. حفيدي

﴿ أحمد حاتم ﴾

خرجت إلى النور مع خاتمة كتابي " أولو العزم من الرسل "

فليكن مولدك خيرا وقرة عين لوالديك .. ولنا جميعا

بارك الله فيك .. ووفقك على السير على هدى أولي العزم من الرسل ..

وعلى هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

الذي أضاء الله بنوره المشرق والمغرب ..

إليك حفيدي أهدي كتابي ..

وأدعو الله أن يكون نورا لك على الطريق ..

حمدي عبد الحميد

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين قيوم السموات والأرض مدبر الخلائق أجمعين باعث الرسل صلواته وسلامه عليهم إلى المكلفين لهدايتهم وبيان شرائع الدين بالدلالة القطعية وواضحات البراهين (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما) ..

أحمده على جميع نعمه واسأله المزيد من فضله وكرمه .. وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار الكريم الغفار ..

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وحبيبه وخليله أفضل خلق الله أجمعين ، المكرم بالقرآن العزيز المعجزة الخالدة على تعاقب السنين ، والسنن المستنيرة للمسترشدين ، المخصوص بجوامع الكلم وسماحة الدين .

صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين والمرسلين وآلهم أجمعين

أما بعد

يقول الله تعالى **﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾** سورة يوسف – آية ٣

في قصص الأنبياء في القرآن الكريم ارتباط وثيق بين وحدة الرسالات الإلهية التي جاء بها النبيون من ربهم لأن كلمة لا إله إلا الله عقيدتهم ، وهي أفضل ما قاله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والنبيون من قبله

وليست قصص القرآن مجرد حكايات ، وإنما هي عظات وعبر بالغات ودروس وتوجيهات وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .. إنها تعليم إلهي وإرشاد رباني ينير الطريق لمن شاء أن يستقيم بالإخلاص لرب العالمين ..

والإيمان بالرسالات الإلهية السابقة واجب على كل مسلم ..

يقول الله تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) سورة البقرة – آية ٢٨٥

وقد اختار الله سبحانه وتعالى الأنبياء من صفوة خلقه واختار الرسل منهم ، واختار أولو العزم من رسله وهم خمسة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام .

- - -

ونتناول في هذا الكتاب بعون الله وتوفيقه سيرة أولي العزم من الرسل في ستة أجزاء على النحو التالي :

الجزء الأول : الاحتياج إلى بعثة الرسل

الجزء الثاني : سيرة رسول الله نوح عليه السلام

الجزء الثالث : سيرة رسول الله إبراهيم عليه السلام

الجزء الرابع : سيرة رسول الله موسى عليه السلام

الجزء الخامس : سيرة رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام

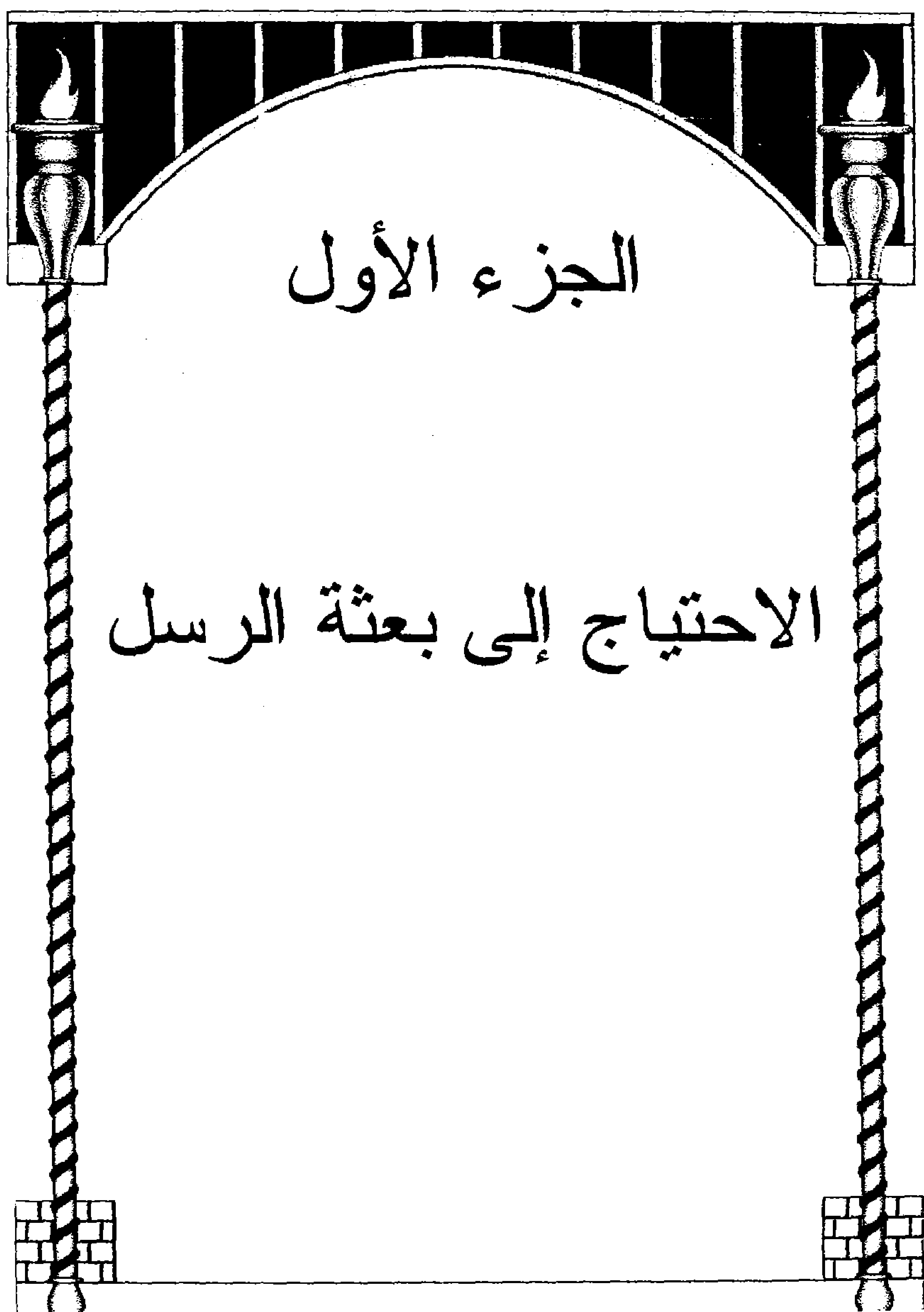
الجزء السادس : نستظل ونهتدي بسيرة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

وعلى الله توكلت وإليه أنيب .. وله الحمد والنعمة وبه التوفيق والعصمة .. اسأله سبحانه أن يتقبل عملي هذا ويجعله خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به من يقرأه من أمة الحبيب محمد خاتم الأنبياء والمرسلين إنه سميع مجيب

المؤلف

محمد حمدي عبد الحميد

(أبو حاتم)



الجزء الأول

الاحتياج إلى بعثة الرسل

الاحتياج إلى بعثة الرسل

شرع الله تعالى الدين لتنقية الروح والعقل من أية شائبة من الشوائب .. وليصلح الظاهر والباطن والقلب والعمل والسلوك والنية ..

ثم أكد الله تعالى قضية التوحيد مبينا أن الدين الذي ارتضاه لعباده هو الإسلام فقال تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) وهو يتناول في اطلاقه جميع الرسالات التي جاء بها الرسل .. والإسلام في معناه اللغوي هو الانقياد والطاعة ..

وما على الرسول إلا البلاغ .. والله تعالى هو البصير بعباده ويعلم المهتدي والضال منهم ..

يقول الله تعالى **﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصال لها والله سميع عليم ﴾** [1]

وقد رُوي في سبب نزول هذه الآية أنه كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان متنصران قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة في نفر من النصارى فلزمهما أبوهما وقال : لا أدعكما حتى تسلما ، فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ..

قال الرجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيدخل بعضي النار وأنا أنظر ؟

فأنزل الله تعالى قوله **﴿ لا إكراه في الدين ...... ﴾**

([1]) سورة البقرة – آية ٢٥٦

وفي هذه الآية ما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس عليهم بمسيطر وأنه لا يكره أحدا على الدخول في الدين ..

وقد كانت دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم للناس إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وأنه لم يكره أحدا على الدخول في الإسلام

- - -

والمسلم يؤمن بأن إرسال الرسل نعمة من الله على عباده ، فإن تجارب البشر مهما بلغت لا يمكن أن تهديهم إلى سواء السبيل ولا أن تدلهم على المنهاج المستقيم لأن النظرة البشرية مهما اتسعت فهي قاصرة تدرك من الحقيقة طرفا ويغيب عنها الآخر [1]

ومن هنا احتاج بنو آدم لهداية الله التي تعصمهم من الضلال وترشدهم إلى الحق وتوضح لهم آفاق الحياة .

يقول الله تعالى ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ [2]

فهل تعلم البشر من الأنبياء ؟ وهل انتفعوا برسالات السماء ؟

يقول الله تعالى ﴿ **يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾ [3]

---

(١) د. مصطفى عبد الواحد ، شخصية المسلم كما يصورها القرآن ، ص٨٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤

(٢) سورة الحديد – آية ٢٥

(٣) سورة يس – آية ٣٠

وبإرسال الرسل قامت حجة الله على العباد ، واتضحت معالم الحقيقة ، وتميز النهج لمن يريد المسير ... فلقد نادى الرسل بالحق ودعوا إلى صراط الله وصبروا على الأذى والتكذيب ولاقوا الأهوال في سبيل هداية البشر وإبلاغ الوحي إليهم ..

يقول الله تعالى ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ [1]

ولقد اختار الله رسله من صفوة خلقه لإنقاذ البشرية وإبعادها عن مهاوي الهلاك ..

ولكن .. كانت السُنّة العامة هي أن يواجه الأنبياء والرسل بالتكذيب والصّد ..

يقول الله تعالى ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾ [2]

والعجيب أن موقف الأمم جميعا من أنبيائهم لم يتغير على مر الزمان . فكل قوم استنكروا أن يكون الرسول بشرا مثلهم ، وكانوا يظنون أنه لا يكون إلا ملكا من السماء لا بشرا من الأرض ..

قال الله تعالى ﴿ **قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين** ﴾ [3]

فطبيعة الدعوة تقتضي أن يكون الرسول بشرا يمكنه الإقناع والبيان ..

---

(١) سورة النساء – آية ١٦٥
(٢) سورة الحجر – آية ١٠ ، ١١
(٣) سورة ابراهيم – آية ١٠

يقول الله تعالى ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾ [1]

ويقول سبحانه وتعالى ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ [2]

ولكن الجاحدين كانوا يكذبون المرسلين ويقولون : ﴿ **... لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فإنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾[3]

ولقد تشابهت التهم التي وُجهت إلى المرسلين من طوائف الضالين :

فحين بُعث محمد صلى الله عليه وسلم رماه الكافرون بأنه ساحر أو مجنون .. وهي نفسها الفرية التي رُمي بها الأنبياء قبله ..

يقول الله تعالى ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون** ﴾ [4]

- - -

ولقد أيد الله رسله بالمعجزات لتدل على صدقهم وتثبّت دعواهم ، فللمعجزة دلالة ناطقة على صدق الرسول وثبوت الرسالة ..

واقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معجزات الأنبياء متفاوتة تناسب أقوامهم وتلائم عصورهم ، فموسى عليه السلام تغلب على سحرة فرعون ، وعيسى عليه السلام كان يُبرئ المرضى ويُحي الموتى بإذن الله ، وكل نبي كانت له معجزات تقنع قومه وتجمعهم على الإيمان ..

---

(١) سورة ابراهيم – آية ٤
(٢) سورة الأحزاب – آية ٢١
(٣) سورة فصلت – آية ١٤
(٤) سورة الذاريات – آية ٥٢ ، ٥٣

أمـا محمـد صـلوات الله وسـلامه علـيه فقد كانـت معجـزته الخـالدة هـي القرآن الكريم معجزة العقل والعلم لتناسب تقدم البشرية واتساع آفاقها وبلوغها مرحلة الرشد والنضوج [1]

والمسلم يؤمن بالأنبياء والرسل جميعا ، ويعلم أن ذلك أصل من أصول الدين ..

يقول الله تعـالى **﴿ آمن الرسول بمـا أنـزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ﴾** [2]

- - -

ومـن هنا وجـب تصـديق الرسل فيما جاءوا به وطـاعتهم فيما أمروا به ، فإنـه لا سـبيل إلـى السـعادة والفـلاح فـي الدنـيا والآخـرة إلا علـى أيـدي الرسل ، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث إلا من جهتهم ولا يُنال رضـا الله سبحانه وتعـالى إلا علـى أيديهم فالطيب من الأعمال والأقوال والأخـلاق ليس إلا هديهم ومـا جـاءوا به.فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهـم وأعمــالهم وأخلاقهـم تـوزن الأقــوال والأعمــال والأخــلاق وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضـلال ، فالضرورة إليهم أعظم من ضـرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها ، فأي ضرورة وحـاجة فرضـت فضـرورة العبد وحـاجته إلى الرسل فوقها بكثير [3]

---

(١) د. مصطفى عبد الواحد ، شخصية المسلم كما يصورها القرآن ، ص٨٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤

(٢) سورة البقرة – آية ٢٨٥

(٣) الإمام قيِّمْ الجَوْزيّة – زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج١ ، ص٢٠

الأنبياء والرسل ... وأولو العزم من الرسل

وقد اختار الله سبحانه الأنبياء من صفوة خلقه كما سبق القول وهم مائة وأربعة وعشرون ألفا .. واختار الرسل منهم وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا على ما في حديث أبي ذر الذي رواه أحمد وابن حبان في صحيحه ...

واختار الله أولي العزم منهم وهم خمسة المذكورين في سورة الأحزاب وسورة الشورى في قوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم)

وقال تعالى **﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾** [1]

وقد اختارهم الله سبحانه ليعبدوا الله ويدعوا إلى عبادته وأن يصدقوا بعضهم بعضا وأن ينصحوا لقومهم ..

وقد خصهم الله سبحانه بذلك لأنهم أولي العزم من الرسل ..

وتقديم ذكر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى (وأخذ منهم ميثاقا غليظا) أي عهدا شديدا على الوفاء بما حُملوا وما أخذه الله عليهم في الوفاء بهذا الميثاق ومنه تبليغ الرسالة إلى قومهم .

---

(١) الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزيه ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج١ ، ص٩

والفـرق بيـن الأنبـياء والرسـل أن الرسـول يكـون صــاحب الشـريعة، والأنبياء بعثوا علـى شرائع الرسل ، فكل رسول نبـي ولـيس كل نبـي رسول [1]

وقد عرف الإمام ابن تيميه الأنبياء والرسل فقال :

النبـي هو الـذي أوصـى الله إليه أن يدعو الـناس إلى شريعة رسول قبله بين قوم مؤمنين .

والرسول هو الـذي ينبئه الله تعـالى ثـم يأمره أن يبلغ رسـالته إلـى قـوم كافرين . [2]

وقد ذكر في القرآن الكريم خمسة وعشرون رسولا بأسمائهم وهم :

آدم ونـوح وابراهيم واسحق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسـى وهـارون وزكريا ويحـي وادريـس والـياس واسـماعيل واليسـع ويونـس ولـوط وصـالح وهود وشعيب وذو الكفل وعيسى ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام ..

وقد بعث الله سبحانه وتعـالى رسـلا آخرين لم تذكر أسمائهم في القرآن الكريم ..

يقول الله تعـالى **﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾** [3]

---

(١) الإمام عبد الله محمد بن ادريس الشافعي ، الفقه الأكبر ، إعداد محمد محمود محمد فرغلي ، ص٤٩

(٢) الإمام ابن تيميه ، كتاب النبوات ، ص٢٥٥

(٣) سورة غافر – آية ٧٨

ولقد أنزل الله على رسله كتبا سماوية تحوي حقائق الدين ، وتجمع أحكام الشرائع وقد أخبرنا القرآن الكريم بأربعة كتب سابقة أنزلت على أربعة من المرسلين ..

التوراة ...... على موسى عليه السلام

الإنجيل ...... على عيسى عليه السلام

الزبور ...... على داود عليه السلام

الصحف ...... على إبراهيم عليه السلام

يقول الله تعالى ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدي ونور** ﴾[1]

وقال تعالى ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور** ﴾ [2]

وقال تعالى ﴿ **وآتينا داود زبورا** ﴾ [3]

وقال تعالى ﴿ **أم لم يُنبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفى** ﴾ [4]

فتلك كتب أربعة

أما القرآن الكريم فهو آخر كتاب من السماء .. وقد جاء مصدقا لحقائق الكتب قبله ، ومبطلا للمزاعم التي أشاعها المفترون ، ومبينا للحقيقة التي ضلت عنها البشرية في كثير من العصور .. كما قال الله في كتابه

---

(١) سورة المائدة – آية ٤٤
(٢) سورة المائدة – آية ٤٦
(٣) سورة النساء – آية ١٦٣
(٤) سورة النجم – آية ٣٦ ، ٣٧

العزيز ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ [1]

ونبينا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء ..

يقول صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر آدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر) رواه الإمام أحمد

ويتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فضائل القرآن الكريم فيقول : " فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم .. وهو بالفصل ليس بالهزل .. من تركه من جبار قصمه الله .. من ابتغى الهدى من غيره أضله الله .. هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة .. ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه .. من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم " رواه البيهقي في الشعب

---

(١) سورة النحل – آية ٦٤

الإسلام هو دعوة كل الرسل [1]

إن الإسلام هو دعوة كل الرسل ، ويتناول اطلاقة جميع الأديان التي أمر الله تعالى رسله أن يبلغوها للناس ، لأنّ روحها الكلي على اختلاف في بعض التكاليف والأعمال وينضوي الإنسان تحت راية الإسلام عندما تصح عقيدته وتخلص من كل شائبة من شوائب الشرك والنفاق ، ويخلص في ايمانه وعمله لله تعالى ...... وهذا هو المراد بقوله تعالى

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ [2]

فالإسلام بمفهومه القرآني المشرق اسم للدين الإلهي الذي جاء به جميع الأنبياء والرسل وانتسب إليه أتباعهم جميعا ....

يقول نوح لقومه **﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾** [3]

ويوصي يعقوب بنيه قائلا **﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمين ﴾** [4]

ويجيب أبناء يعقوب أباهم قائلين **﴿ نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾** [5]

ويقول موسى عليه السلام لقومه **﴿ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾** [6]

---

(١) د . أحمد عمر هاشم ، من هدي الشريعة ، ص١٤ ، ١٤١٦هـ ، ١٩٩٥ – ١٩٩٦م

(٢) سورة آل عمران – آية ٨٥

(٣) سورة يونس – آية ٧٢

(٤) سورة البقرة – آية ١٣٢

(٥) سورة البقرة – آية ١٣٣

(٦) سورة يونس – آية ٨٤

ويقول بعض أهل الكتاب حين سمع القرآن ﴿ **قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين** ﴾ [1]

وقد وجه القرآن الكريم الأمة الإسلامية إلى بيان هذه الحقيقة في قول الله تعالى ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ [2]

كما خاطب الله تعالى الرسل جميعا مبينا أن الإسلام والتوحيد قد أمر به كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام وكافة الأمم كأمة واحدة متحدة في أصول الشرائع لا تتبدل بتبدل العصور ..

يقول الله تعالى ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾ [3]

وتتلخص دعوة الملة القيمة في التوحيد الخالص لله الواحد الأحد ، مع اتباع جميع الأحكام المنوطة باتباع الإسلام كما قال الله تعالى ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ [4]

---

(١) سورة القصص – آية ٥٣
(٢) سورة الشورى – آية ١٣
(٣) سورة المؤمنون – آية ٥٢
(٤) سورة البينة – آية ٨٥

وقولـه تعـالى ﴿ قولـوا آمنـا بـالله ومـا أنـزل إلينـا ومـا أنـزل إلى إبراهيم وإسمـاعيل وإسـحاق ويعقـوب والأسـباط ومـا أوتـي موسـى وعيسـى ومـا أوتـي النبيـون من ربهم لا نفرق بين أحد منـهم ونـحن لـه مسلمون ﴾ [1]

علاقة الإسلام بالأديان الأخرى

علاقـة الإسـلام بالأديـان الأخـرى علاقـة الشـيء بنفسه مادام جوهره هو جوهر كل الرسالات ، ودعوة رسوله هي دعوة كل الرسل ..

وأمـا مـا اختصـت بـه العقيدة الإسـلامية الخاتمـة من شرائع وأحكام فهذا مدلـول معيـن علـى شـريعة معينـة .. وعلاقـة الإسـلام كشـريعة للرسـول صلوات الله وسلامه عليه بالأديـان الأخـرى تقـوم علـى أسـاس تصـديق القرآن لما بين يديه من الكتب والهيمنة عليها ..

وهذه العلاقة تأخذ اتجاهين واضحين

الاتجاه الأول : علاقة الإسلام بالشرائع السماوية قبل تطورها وتغييرها

الاتجاه الثاني : علاقته بها بعد تطورها وتغييرها

أمـا عن الاتجـاه الأول .. فالقرآن جـاء مصـدقا لمـا قبله من الكتـب ، وقد أخذ رب العزة سبحانه وتعالى على كل نبي إذا جاءه رسول مصدق لما معـه أن يؤمـن بـه وينصـره .. وتصديق الكتب المتأخرة للمتقدمة لا يعني أنهـا لا تغير منها شيئا ، فهي مع أنها مصدقة لها إلا أنها تغير منها كما حـدث أن جـاء الإنجـيل بـتعديل أحكـام الـتوراة – علـى رأي – فأعلـن عيسـى عليه السـلام أنـه جاء ليحل لبنـي اسرائيل بعض الذي حرم عليهم .

---

(١) سورة البقرة – آية ١٣٦

وأيضا فقد جاء القرآن الكريم بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة إذ أعلن أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ليحل للناس كل الطيبات ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ..

وليس في هذا تناقض من اللاحق للسابق ، ولا إنكار منه له وإنما هو توافق وتناسب للزمن الذي تعيشه كل أمة ، ليتواءم مع ظروفها وطبيعتها وأطوارها المختلفة ، فإن الذي يتناسب مع أمة من الأمم في طورها الأول قد لا يتناسب معها في الطور الثاني ، والذي يتناسب معها في الطورين الأولين قد لا يتناسب معها في الطور الثالث وهكذا .

نعم .. هناك من الأمور ما تأذن الشريعة اللاحقة بإبقائه واستمراره في نطاق ظروفه السابقة كالوصايا العشر مثلا ما عدا الوصية العاشرة التي تحرم العمل يوم السبت ، فمثل ذلك من التشريعات مؤقتة بآجال طويلة أو قصيرة فهي تنتهي بانتهاء وقتها ، وتأتي الشريعة اللاحقة بما يوافق الأوضاع مصداقا لقوله تعالى ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها** ﴾ [1]

إذا ففي كل شريعة من الشرائع عنصران ضروريان للدعوة :

عنصر مستمر يربط حاضرها بماضيها ...

وآخر غير مستمر ، ويقوم بالتجديد بما يتناسب مع تطورها في كل زمان ومكان ..

---

(١) سورة البقرة – آية ١٠٦

فمثلا نرى شريعة التوراة تنص ضمن قوانين السلوك الأخلاقي طلب العدل والمساواة – مع اليهود – ونرى شريعة الإنجيل تقرر هذه المبادئ وتزيد عليها – عند من يرى الإنجيل شريعة منفصلة عن شريعة التوراة – ففيه (لا تراء الناس بفعل الخير) و (أحسن إلى من أساء إليك) وأوضح ما فيها التسامح والإحسان وتأتي شريعة القرآن فتقرر المبدأين معا ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ [1]

﴿ **جزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ [2]

وقال تعالى ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ [3]

وقد أضافت الشريعة الإسلامية كل مكارم الأخلاق ، فلم تدع جانبا من جوانب السلوك في التحية والاستئذان والمجالسة والمخاطبة وما إلى ذلك من الآداب السامية والأخلاق الرفيعة كما هو موضح في سور النور والحجرات والمجادلة ..

إذا فالشرائع كلها بمثابة اللبنات في بناء الدين ، ومهمة اللبنة الأخيرة إكمال البناء وإمساكه وبلوغه الكمال الخلقي كما قال عليه الصلاة والسلام (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقد وصف الله تعالى

---

(١) سورة النحل – آية ٩

(٢) سورة الشورى – آية ٤

(٣) سورة النحل – آية ١٢٦

رسوله صلى الله عليه وسلم بأكمل وصف وأعظم خلق إذ يقول سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم **﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾** [1]

فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الإنسانية ، وخاتم النبيين فليس بعده نبوة ولا رسالة ، فرسالته قد جمعت أصول الدين التي تستجيب لحاجة الإنسانية في كل زمان .. فهو قد أكمل البناء وختم الرسالات كما يقول عن نفسه : " إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين " رواه البخاري

ويقول القرآن الكريم في بيان إكمال الدين وإتمام النعمة الإلهية على العباد على يدي خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾** [2]

وأما عن علاقة الإسلام بالأديان السماوية الأخرى بعد تطويرها وتغييرها : فقد عرفنا أن القرآن الكريم جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا على تلك الكتب ، والهيمنة تعني الحراسة الأمنية عليها والحماية الواعية لها ..

---

(١) سورة القلم – آية ٤

(٢) سورة المائدة – آية ٣

وهكذا كانت مهمة القرآن الكريم .. نفي وجود الأمور الزائدة وتحدي إدعاء وجودها في الكتب **﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾** [1]

وإبراز ما أخفوه **﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ﴾** [2]

فعلاقة الإسلام إذا بالأديان الأخرى في طورها الأول علاقة تأييد كلي وأما في طورها الأخير المتطور فهي تصديق لما بقي من أجزائها الأصلية وتصحيح لما طرأ من البدع والإضافات الغريبة عنها ...

وقد أمر الإسلام أتباعه بالتعامل الحسن حتى مع أبعد الأديان عنه كما قال الله تعالى في كتابه الحكيم

﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ [3]

إن سماحة الإسلام لتنفسح جوانبها وتمتد ظلال الأمن فيها وارفة فتجير المشرك وتؤويه وتكفل له الأمن ، وتقدم له الرشد الناجح ، والتوجيه السديد بالحكمة والموعظة الحسنة كما قال تعالى **﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾** [4]

بل وتكفل له الحماية والرعاية والأمان من كل غائلة ...

---

(١) سورة آل عمران – آية ٩٣

(٢) سورة المائدة – آية ١٥

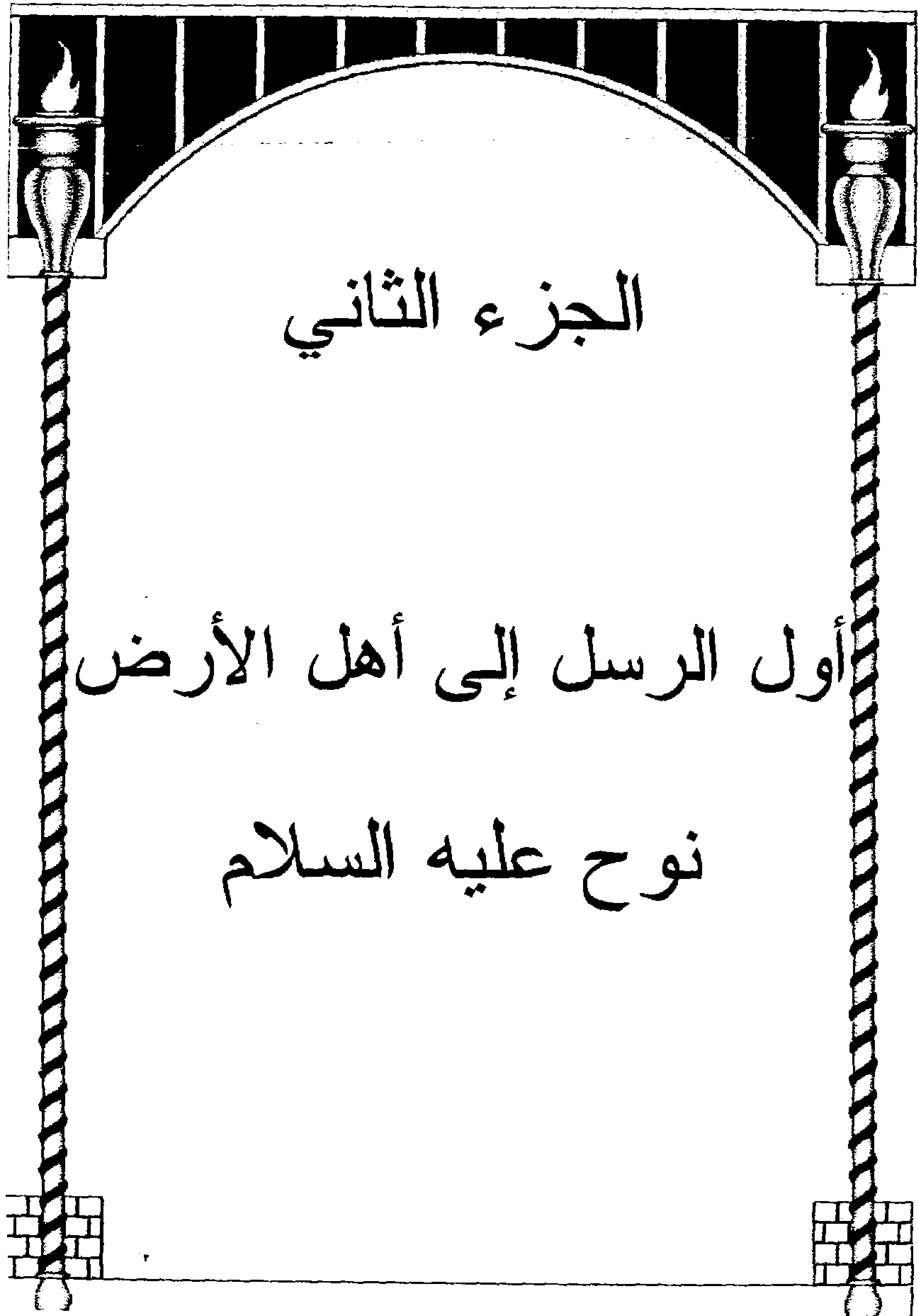
(٣) سورة التوبة – آية ٦

(٤) سورة النحل – آية ١٢٥

كما ندب الإسلام أتباعه أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف بر ورحمة وقسط وعدل .. يقول الله تعالى **﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾** [1]

---

(١) سورة الحجرات – آية ٩



الجزء الثاني

أول الرسل إلى أهل الأرض

نوح عليه السلام

هو نبي الله ورسوله نوح عليه السلام بن ملك بن متوشلخ .. وأمه فيسوس . ولد بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين عاما .. [1]

وقد بعث الله تعالى نوح عليه السلام لما عُبدت الأصنام والطواغيث وانتشر الفساد في الأرض وعمّ البلاء ، وشرع الناس في الضلال والكفر فبعثه الله رحمة للعباد يدعوهم إلى عبادة الله وحده ..

فلما بعث الله نوحا عليه السلام إلى قومه ، وكان يقال لهم بنو راسب كما ذكر ابن جبير وغيره .. دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وألا يعبدوا معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا ، وأن يعترفوا بوحدانية الله ، وأنه لا إله غيره ، ولا رب سواه كما أمر الله تعالى ..

وتعددت دعوة نوح لقومه فدعاهم في الليل والنهار ، والسر والعلن بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى ، وكل هذا لم ينجح فيهم ، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان ، وتنقصوه وتنقصوا مَن آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم وقال له السادة الكبراء من قومه **﴿ إنا لنراك في ضلال مبين ﴾** [2]

﴿ قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ﴾ [3]

---

(١) الإمام جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدس (ابنُ المِبْرَد) شرح وتعليق أحمد صلاح الدين أحمد ، الشجرة النبوية في نسب خير البرية صلى الله عليه وسلم ، دار حراء ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧

(٢) سورة الأعراف ، آية ٦٠

(٣) سورة الأعراف – آية ٦١

أي لست كما تزعمون من أني ضال ، وإنما أنا على الهدى المستقيم رسول من رب العالمين الذي يقول للشئ كن فيكون ..

نزل نوح إلى قومه في يوم عيد لهم يسجدون فيه للأصنام ..

فأخذته الغيرة فوضع إصبعيه في أذنيه ورفع صوته – وكان جهوري الصوت – وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا معبود سواه ، اعبدوا الله واتقوه وأطيعوه يغفر لكم من ذنوبكم فوقعت الأصنام على وجوهها ، فآمن به عدد قليل من قومه وكان أول من آمن به امرأة اسمها عمورا تزوجها وهو ابن خمسمائة سنة فولدت له سام وحام ويافث .. (تاريخ الطبري)

- - -

وتعجب قوم نوح أن يكون بشر رسول ، وتنقصوا من اتبعه ، ورأوهم أراذلهم ، ونعتوهم بأنهم من أفناد الناس وهو ضعفاؤهم وقالوا : إنك قد أغريت الضعفاء ، وأنك بمجرد دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية ..

سبحان الله – إن الذي رموهم به هو عين ما يُمدحون بسببه فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر ، بل يجب اتباعه متى ظهر ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مادحا الصديق : " ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم " ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضا سريعة من غير نظر ولا روية لأن

أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة رضي الله عنهم جميعا ..

وقال كفرة قوم نوح له ولمن آمن معه إنه لم يظهر لكم أية ميزة علينا بعد إيمانكم ..

ويتلطف نبي الله نوح عليه السلام في الرد على قومه فيقول لهم **﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾** [1]

يقول لهم : إذا كان الله قد حباني بالنبوة والرسالة فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها أنجبركم عليها .. إنه ليست لي فيكم حيلة ، ولا أريد منكم أجرا على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم ، إني لا أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي وأبقى مما تعطوني أنتم ، إنه هو الرزاق وحده ، لا يَرزق غيره ..

وطلب قوم نوح منه أن يبعد من آمن به عنه ، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو طردهم .. فأبى عليهم ذلك وقال **﴿ وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين ﴾** [2]

وقال لهم : أنا عبد رسول ، لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به ، ولا أقدر إلا على ما أقدرني عليه ، ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله .

---

(١) سورة هود – آية ٢٨
(٢) سورة الشعراء – آية ١١٤ ، ١١٥

وقد تطاول الزمان والمجادلة بين نوح وقومه ، فلم يؤمن به إلا القليل منهم وكان كلما انقرض جيل وصّوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ..

﴿ قالوا يا نوح لقد جادلتنا فاكثرت جدالنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾ [1]

أي إنما يقدر على ذلك الله عز وجل فإنه الذي لا يعجزه شئ ولا يكترثه أمر .. إنما هو الذي يقول للشئ كن فيكون ومن يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته فهو الذي يهدي من يشاء ويُضل من يشاء وهو الفعّال لما يريد ، وهو العزيز الحكيم العليم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، إن الله قادر أن يأتيهم بالعذاب إن شاء ، وإنهم لن يستطيعوا الهرب منه لأن الله سبحانه لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء ..

هنالك دعا نوح ربه واشتكى إليه **﴿ قال ربي إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصّروا واستكبروا استكبارا ﴾** [2]

نسب نوح عصيان قومه إليه ولم يقل عصوا الله ولم يقبلوا دعوته ، وإنما نسب العصيان إليه تأدبا مع ربه سبحانه وتعالى ..

---

(١) سورة نوح – آية ٣٢ ، ٣٣
(٢) سورة نوح – آية ٥ : ٧

ودعا نوح ربه أن يغفر له .. ودعاء نوح هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله العلي العظيم .. أدب العبد في حضرة الرب .. العبد الذي لم ينس أنه بشر وأنه يخطئ ويصيب ، وأنه لا يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بفضله ، كما قال أخوه النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .. وهذا هو الاستغفار الذي دعا به قومه العصاة الخاطئين إليه فاستكبروا عليه وها هو النبي يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناد يستغفر وهو يقدم لربه سجل الحساب [1]

عمل السفينة

ومضى قرن بعد قرن ما استجابوا له حتى لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله أسرارا وإعلانا .. فلما أراد الله إهلاكهم استجابة لدعاء نبيهم أمره أن يغرس شجرة فغرس نوح الشجرة فكبرت وعظمت ثم أمره الله بقطعها بعد أربعين سنة (تاريخ الطبري)

وأوحى الله إليه **﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾** [2]

فأخذ نوح في صنع السفينة ، وكان قومه يستهزئون به ويسخرون منه بقولهم يا نوح قد صرت بعد النبوة نجارا ، وكانوا يستبعدون وقوع ما

(١) الشيخ سيد قطب ، في ظلال القرآن ، ص٣٧١٧
(٢) سورة هود – آية ٣٦ ، ٣٧

توعدهم به ، ويقولون يا نوح : تعمل السفينة في البر فكيف تجري ؟؟!!
وكان نوح يصبر على سخريتهم وتطاولهم عليه ..

إنه مثل سائر رسل الله على درجة عالية من الصبر على ما لاقوا من قومهم .. نادوا بالحق .. ودعوا إلى صراط الله ، وصبروا على الأذى والتكذيب ولاقوا الأهوال في سبيل هداية البشر وإبلاغ الوحي إليهم ..

ويرد نوح على قومه وعلى سخريتهم منه واستهزائهم به وبمن آمن معه فيقول : نحن الذين نسخر منكم ونتعجب استمراركم على كفركم وعنادكم الذي يقتضي وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم ..

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا والآخرة فإنهم يجحدون أيضا أن يكون جاءهم رسول ..

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يجئ نوح عليه السلام وأمته فيقول الله عز وجل له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، أي رب .. فيقول رب العزة لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا .. ما جاء لنا من نبي .. فيقول الله لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول نوح : محمد وأمته .. فنشهد أنه قد بلغ " ..

يقول الله تعالى ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ [1]

ويصنع نوح السفينة بوحي من الله تعالى ..

---

(١) سورة البقرة – آية ١٤٣

وكان ارتفاع سفينة نوح ثلاثين ذراعا ، وكانت ثلاث طبقات كل واحدة عشرة أذرع ، فالسفلى للدواب والوحوش ، والوسطى للناس ، والعليا للطيور .. وكان بابها في عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها وقد اختلفوا في طولها ..

- - -

وأمر الله نبيه نوح أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح .. وأن يحمل معه أهله إلا من كان كافرا فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد ، وأمره ألا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعانوه من العذاب العظيم الذي قد حتمه عليهم الفعّال لما يريد ..

وأمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه وأقر عينيه ممن خالفه وكذبه .. وأمره بالدعاء في ابتداء الأمور أن يكون على الخير والبركة وأن تكون عاقبتها محمودة وقد امتثل نوح عليه السلام لأمر ربه فقال للمؤمنين من قومه ﴿ اركبوا **فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم** ﴾ [1]

أي على اسم الله ابتداء سيرها وانتهاؤها ..

وركب نوح السفينة مع المؤمنين وكانوا قليلا فكلهم ثمانون إنسانا [2]

---

(١) سورة هود – آية ٤١

(٢) الإمام جمال الدين يوسف المقدس (ابن للميزد) ، الشجرة النبوية في نسب خير البرية ، ص١٦٨

وأرسل الله تعالى من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده كان كأفواه القرب .. وأمر الله الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها .. وارتفع الماء على أعالي الجبال أربعين ذراعا فهلك كل من في الأرض وكان دوي الماء كصوت الرعد القاصف .. والسفينة تشق الماء شقا عنيفا وهي تجري بهم في موج كالجبال .. وطافت السفينة بنوح ومن معه الأرض كلها في ستة أشهر من دون استقرار على شئ إلى أن وصلت إلى الجودي ، وكان الجودي جبلا بالموصل من أكبر الجبال (قصص الأنبياء للجزائري)

لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم

﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ [1]

وهذا الابن هو يام أخو سام وحام ويافث ..

وقيل اسمه كنعان .. وكان كافرا (عملا غير صالح) خالف أباه في دينه ، فهلك مع من هلك .. هذا وقد نجا مع نوح الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب .

وناشد نوح ربه في ولده ، وقال : يا رب إنك وعدتني بنجاة أهلي معي وهو منهم وقد غرق .. فأجابه ربه : إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك .. فكان هذا الابن ممن سبق عليه القول منهم بأنه سيغرق

---

(١) سورة هود – آية ٤٢ ، ٤٣

بكفره .. ولهذا ساقته الأقدار إلى أن ينفرط عن الإيمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان ..

- - -

هبوط السفينة

يقول الله تعالى ﴿ **قِيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ [١]

وبعد أن طافت السفينة بنوح ومن معه الأرض كلها في ستة أشهر من دون استقرار على شئ إلى أن وصلت إلى الجودي يقول المفسرون :

إن الله كلم نوحا قائلا له : أخرج من الفلك أنت ومن معك ولينموا وليكثروا في الأرض .. فخرجوا وابتنى هناك قرية سماها ثمانين لأنه كان قد بنى فيها لكل من المؤمنين بيتا وكان عددهم ثمانين شخصا كما ذكرنا ، وعهد الله إليه ألا يعيد الطوفان على أهل الأرض ، وجعل تذكارا لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام وهو قوس قزع الذي رُوي عن ابن عباس أنه أمان من الغرق ..

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن مع ما تواتر عند الناس في سائر الأزمان على وقوع الطوفان ، وأنه عم جميع البلاد ، ولم يبق الله أحدا من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذا لما سبق القدر المحتوم ..

---

(١) سورة هود – آية ٤٨

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ولد لنوح : سام وحام ويافث ، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم ، وولد ليافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم ، وولد لحام القبط والبربر والسودان "

صوم نوح عليه السلام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى ، وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر " ..

وصية نوح عليه السلام لولده

عندما حضرت نوح الوفاة قال لابنه : إني قاص عليك وصية : آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين : آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة لرجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده فإن بها صلات كل شئ ، وبها يرزق الخلق .. وأنهاك عن الشرك والكبر .

قيل يا رسول الله ، هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر ؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتا لهما شراكان حسنان ؟ قال : لا

قيل : هو أن يكون لأحدنا حُلة يلبسها ؟ قال : لا

قيل : هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها ؟ قال : لا

قيل : هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ قال : لا

قيل : يا رسول الله .. فما الكبر ؟

قال صلى الله عليه وسلم : الكبر هو سفه الحق وغمط الناس [1]

وفاته

عاش نوح عليه السلام بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ، فحج هو وابنه سام ..

ولما رجع من حجة قسم الأرض على أولاده الثلاثة سام وحام ويافث ..

وجاءه ملك الموت وكان في الشمس فقال : السلام عليك .. فرد عليه نوح السلام وقال : ما جاء بك ؟

قال : جئت لأقبض روحك ..

قال : فدعني أدخل من الشمس إلى الظل ..

فقال له : نعم .. فتحول إلى الظل فقبض روحه ..

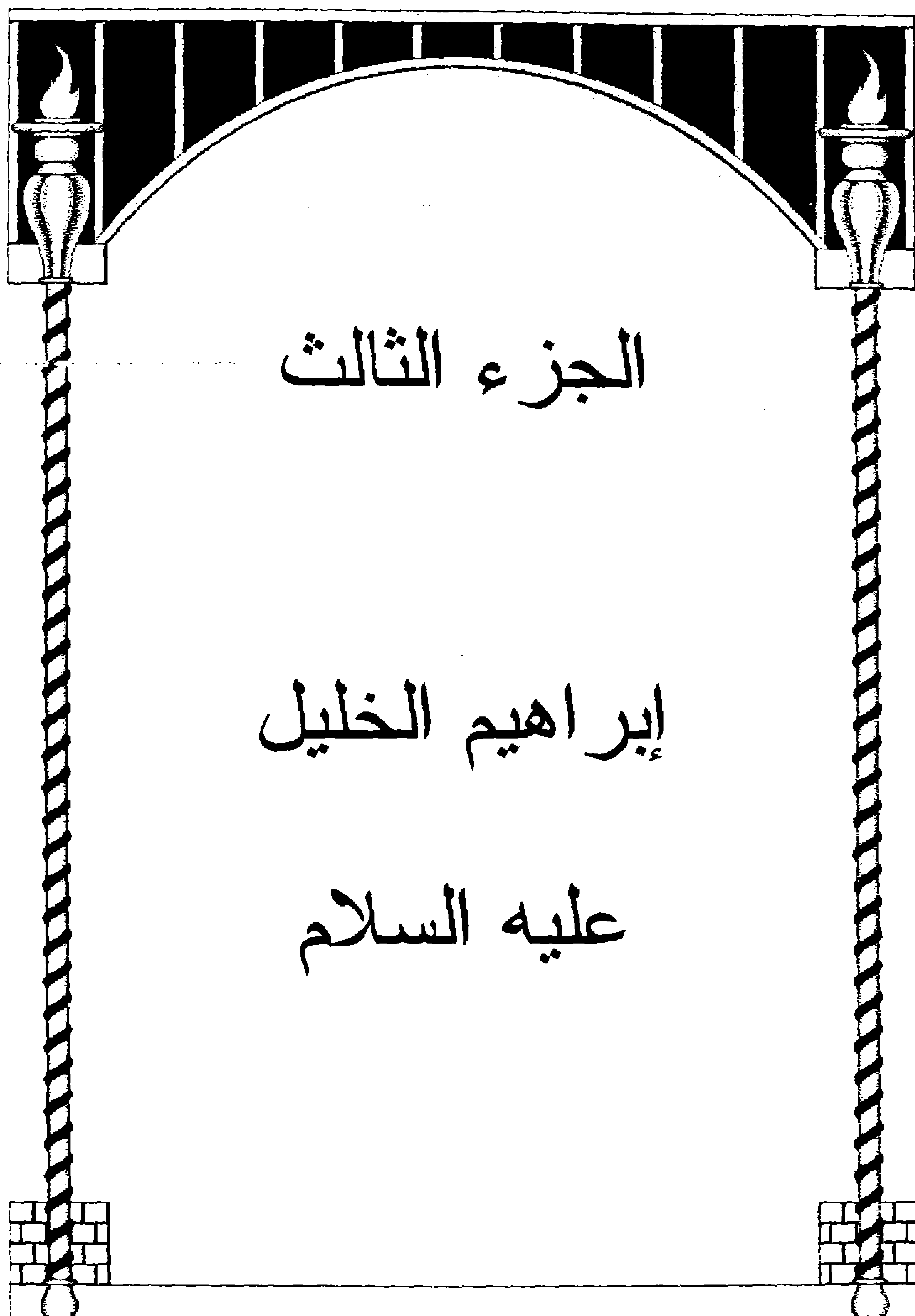
وجهزه ابنه سام حسب وصيته وصلى عليه هو واخوته ودفنوه في الموضع الذي مات فيه ..

ومات نوح عليه السلام أبو الأنبياء ، بل وأبو البشر بعد الطوفان ..

سلام على نوح في العالمين ..

---

(١) رواه مسلم ، ج ١ ، ص ٦٥



الجزء الثالث

إبراهيم الخليل

عليه السلام

اسم النبي إبراهيم عليه السلام من أكثر أسماء الأنبياء ورودا في القرآن الكريم ، فقد ذكر اسمه ما يزيد عن ستين مرة في خمس وعشرين سورة سميت واحدة منها باسمه .. ويعتبر إبراهيم عليه السلام دون نزاع أبا لأنبياء الأديان السماوية الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلامية) فقد تتابع أنبياء اليهود من سلائل حفيده يعقوب عليه السلام ، ومن بينهم أيضا ظهر رسول المسيحية عيسى بن مريم عليه السلام ، ثم من سلالة ابنه الأول إسماعيل عليه السلام ظهر النبي العربي محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ليهدي الناس إلى دين الإسلام الذي جاء جماع الأديان السماوية وخاتمها كما جاء رسوله خاتم الرسل أجمعين ..

ومع عظمة الإسلام ونبيه ونضج دعوته واكتمالها وملاءمتها لكل زمان ومكان ، فما زال نبي الإسلام العظيم وقرآنه الكريم يلهجان بالثناء على أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وعلى ثورته الدينية التي قام بها ، وملة الوحدانية التي دعا الناس إليها ، وحسبنا أن نقرأ من هذا الثناء قول الله تعالى ﴿ **ومن أحسنُ دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ اللهُ إبراهيم خليلا** ﴾ [1]

- - -

وقد ظهر خليل الله إبراهيم عليه السلام بين جماعة يقدسون الكواكب ويقيمون لها أصناما وتماثيل يعبدونها ، فأنكر على قومه عبادة الأصنام

---

(١) سورة النساء – آية ١٢٥

وحاول هداية أبيه الذي كان يسهم في صنعها ويشجع على عبادتها ..
وهنا قرر إبراهيم أن يقوم بثورة دينية يحطم فيها الأوثان ويلزم أباه وقومه بالحجة العملية حين يثبت لهم عجز آلهتهم عن الدفاع عن أنفسها وقد تمرد قوم إبراهيم على دعوته واغتاظوا لما نال آلهتهم من الهوان على يديه فقرروا الانتقام منه والقضاء على حياته ولكن الله أنقذه وحماه ولما يئس إبراهيم من هداية أبيه وأهله وسائر قومه قرر أن يهاجر بدينه وأن يودع أباه ويأخذ معه من آمن من أهل بيته ..
وتمضي قافلة الزمان .. ويدعو إبراهيم ربه في كل مكان يصل إليه ..
ولنبدأ القصة من أولها .. قصة إبراهيم عليه السلام

إبراهيم الخليل عليه السلام

أبو الأنبياء

هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر ابن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ١

ولد إبراهيم عليه السلام في مدينة أوُر بالعراق .. وكانت أمه قد جاءها في المنام من يقول لها : ستضعين ذكرا .. فإذا وضعته فسميه إبراهيم ولم يكن زوجها موجودا حين الولادة .. فذكرت ما رأت في نومها لوالد زوجها (ناحور) فقال :اسم عظيم معناه (أبو القبائل .. أو أبو الأمم) وقد رأيت في منامي أن نورا خرج من صلب ولدي آزر فأضاء السماء سيكون لولدك هذا شأن عظيم .. سيقترن اسمه بنجوم القبة الزرقاء .. وعاد الأب من سفره وفرح بولده وبالاسم الذي أطلق عليه ٢

- - -

وما أن شب إبراهيم على الطوق حتى رأى أباه يعبد الأصنام التي يصنعها فسأله كيف يسجد لما يصنعه بيديه .. فحاول الأب أن يقنعه بأنها رموز للآلهة .. وأن الآلهة الأصلية في السماء جالسة على عروشها .. فلم يقتنع إبراهيم ..

فقال الأب : صبرا يا بني حتى تكبر ويتسع أفق فهمك وعندئذ سوف تدرك كل شئ ..

---

(١) ابن كثير ،قصص الأنبياء ، الطبعة الثامنة ،دار العلم بيروت لبنان ،ص١٣٠

(٢) أمينة الصاوي ، لكعبة المشرفة ، دار عكاظ للطباعة والنشر ، ج٥ ، ص١٦

وكبر إبراهيم .. فأرسله أبوه إلى بيت جده (ناحور) ليتعلم اللغة والحساب والفلك وعلم النجوم .. وتميز إبراهيم على رفاقه جميعا وأظهر ميلا إلى التعمق في دراسة التنجيم واللاهوت .. واستطاع إبراهيم بتأملاته الخاصة في الكون الذي يعيش فيه أن يقيم لنفسه حياة خاصة تقوم على التفكير فيما يراه بمجتمعه من صور رهيبة ..

فهؤلاء الكبار من قومه وأصحاب الرأي والفكر يعبدون آلهة من الخشب والحجارة يصنعونها بأيديهم .. وهؤلاء كهنة المعابد يرتكبون الموبقات .. وهذا ملك البلاد قد تأله على الناس وطالبهم بأن يسجدوا له ولم يطق إبراهيم العيش في هذا المجتمع فاتجه إلى الصحراء وراح يقضي فيها الساعات يفكر في صمت ..

كان ينظر إلى السماء ويقول : لا بد لهذا الكون من إله واحد هو الذي خلقه .. وهو الذي يسيره ..

وذات يوم .. حمّله أبوه كمية من الأصنام وطلب منه أن يبيعها أمام المعبد .. فرضخ إبراهيم وسار بحمله إلي المعبد .. وهناك وقف ينادي: أيها الناس .. من يشتري أصناما لا تضر ولا تنفع وسمع الكهنة نداءه فثاروا عليه وشكوه إلى أبيه الذي حاول ضربه .. فجرى إبراهيم بما بين يديه حتى وصل إلى شاطئ الفرات فوضع التماثيل إلى جواره وجلس يفكر ..

وفجأة خطر له أن يسخر من هذه الأصنام فغمس رءوسها في الماء وقال : اشربوا .. إنه ماء عذب .. لماذا لا تشربون ؟

وراه بعضهم فنقل هذا إلى الكهنة الذين زادت ثورتهم عليه ..

- - -

واستمر إبراهيم على كراهيته لأصنامهم حتى كبر وتزوج من ابنة عمه سارة ..

واستيقظت سارة في إحدى الليالي فإذا إبراهيم يصلي ..

فسألته : ماذا تفعل يا إبراهيم ؟

قال : أصلي لله

قالت : أإله غير آلهتنا العظام ؟

قال إبراهيم : إله لا شريك له في ملكه .. خلق السموات والأرض وما بينهما وهو القادر على كل شئ ..

فسألته : من علمك هذا يا إبراهيم ؟

قال : هداني ربي إلى صراط مستقيم وشرح صدري لدينه الحق ..

قالت : ومن أدراك أن ربك هداك إلى هذا الدين ؟

قال إبراهيم في إيمان عميق : إنما أتبع ما يوحى إليّ من ربي .. وقد بعثني رسولا لأدعو الناس لعبادته وحده .. وإني أدعوك إلى الله الذي لا إله إلا هو ..

ونظرت سارة إليه في دهشة .. فما يقوله يختلف عن كل ما عرفته من الكهان ورجال الدين .. ولكنه يدلف إلى القلب مباشرة فيضئ جنباته بنور جميل حبيب ١

- - -

وأخذ إبراهيم يدعو الناس إلى دينه الجديد .. فبدأ بأبيه ، ولكنه لم يستجب لدعوته سخر منه وقال له انه لن يعبد إلا ما كان يعبد آباءه .. ودعا إبراهيم قومه إلى توحيد الله عز وجل وترك عبادة الأصنام .. ولكنه لقي من قومه الجحود والنكران فاتهمه البعض بالكذب واتهمه آخرون بالجنون !!

وقال لقومه : ما هذه التماثيل التي تعبدونها

قالوا : **﴿ وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾** ٢

فكانت حجتهم أنها صنيع الآباء والأجداد ..

تحطيم الآلهة

وكان لقوم إبراهيم عيد يحتفلون به في كل عام ، ويقضون يومه المقدس خارج المدينة ، فدعاه أبوه ليحضره فاعتذر لمرضه ..

ولم يكذب إبراهيم فقد كان سقيم النفس مهموم القلب كاسف البال حزينا على قومه الذين لم يستجيبوا لدعوته واتخذوا أصنامهم أربابا من دون الله ..

---

(١) أمينة الصاوي ، الكعبة المشرفة ، ص٢٠

(٢) سورة الأنبياء ــ آية ٥٣

فلما خرجوا إلى عيدهم ذهب إلى أصنامهم فوجد أمامهم أنواعا من الأطعمة قدموها قربانا إليها .. فقال لها على سبيل التهكم والإزدراء : " الا تأكلون ما لكم لا تنطقون " ، وطفق إبراهيم في ثوره المخنق المغيظ يوسع الأصنام لطما بيديه وركلا بقدميه ، ثم عمد إلى فأس كان قد أعدها فهوى بها على الأصنام فتهاوت مهشمة محطمة وتناثرت أشلاؤها ، ولم يُعف من بطش فأسه إلا صنما كبيرا يبقي عليه ويضع الفأس في عنقه ..

ولما رجع القوم من عيدهم ووجدوا ما حل بآلهتهم هالهم ذلك فقد باعوها حبات قلوبهم واختصوها بكل مظاهر الإجلال والإكبار ..

وبعد أن جمعوا أشتات حواسهم وأحاسيسهم التي اضطربت من شدة الصدمة وهول المفاجأة أقبل بعضهم إلى بعض يتساءلون **﴿ من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾** ١

قال أحدهم : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، طالما سفه منا الأحلام وعاب علينا عبادة الأصنام ولن يجرؤ على إنزال ما نزل بهذه الآلهة إلا هذا الفتى الذي ظل كافرا بها ..

وقرروا محاكمته في الملأ الأكبر على رؤوس الأشهاد .. واجتمع القوم شوقا إلى دنو ساعة القصاص من إبراهيم الذي هدّ بتحطيم الأصناف كرامتهم وجاءوا به وسط هذا العباب البشري الثائر وسألوه :

أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟

---

(١) سورة الأنبياء – آية ٥٩

لم ينخلع قلب إبراهيم لما يرى من هذه الحشود لأنه يعلم أن السماء تؤيده ، وروح القدس تعاضده فرد عليهم بسخرية : " بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون " ..

يا للجواب الحكيم السديد الموجز المفيد الموجع لهم .. فيه حكمة وإيقاظ من غفلة ، وفي طياته وحواشيه غمز ظاهر وتهكم ساخر ..

ما جانب إبراهيم في جوابه جانب الصدق ، وكيف وهو النبي المرسل أفضل أولي العزم من الرسل بعد محمد صلى الله عليه وسلم .. لا يقول إلا حقا (بل فعله كبيرهم هذا) على سبيل التهكم والتعريض .. سد عليهم إبراهيم بهذا الجواب الحكيم منافذ السبل وأوقفهم من أمرهم المضطرب في حيرة واضطراب ..

أيصدقون أن هذا الصنم الكبير هو الذي جنى جنايته الكبيرة على إخوته أو أبنائه الصغار ؟ إذا فهو إله ظالم .. ولكن .. كيف ؟

وهو لا يستطيع أن يتحرك من مكانه ، ولا يستطيع رفع الفأس بيديه ؟

إذا فكيف يكون إلها وهو العاجز أن يخطو خطوة أو يضرب ضربة ..

وهذه الآلهة الأخرى كيف بلغت بها الضعة والذلة أن تعجز حتى عن الدفاع عن نفسها ، وجميع هذه الآلهة صم بكم عمي لا ترى ولا تسمع ولا تجيب ولا تبدئ ولا تعيد ..

في هذه الحيرة أوقع إبراهيم قومه بسديد جوابه وحكيم خطابه فلعلهم أن يخرجوا من ليل هذه العماية والغواية إلى وضح نهار من الرشاد والهداية ..

شملت القوم لحظة خاطفة أضاءت فيها جوانب عقولهم على أثر هذه الشرارة التي ولدتها إجابة إبراهيم كادوا يميتون فيها العناد ويلبون داعي الرشاد ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون وقالوا (إنكم أنتم الظالمون) ..

ثم ما لبثوا أن غرقوا في بحر من الحيرة لا ساحل له فقالوا لإبراهيم قولا فيه الخبال وفيه الضلال (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) ..

يا عجبا كل العجب !! إنه سلاح جديد .. أسلمه هؤلاء البله المناكيد لخصمهم الفتى الرشيد .. يا للجهالة ويا للضلالة !!

عندها قال إبراهيم بعد إذ ضيق عليهم الخناق وسدّ عليهم كل متنفس (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ! أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) !

وإذا أخفق الجهول الغشوم في ميدان الحوار والجدال حاول أن يغطي هزيمته بأساليب العنف والقتال ، ولما لم تسعف القوم في ميدان الحجة والبرهان شقشقة اللسان لجئوا إلى ألسنة النيران ، (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين) إذا فقد أصدروا حكما بحرق إبراهيم وأقاموا بناء ضخما أوقدوا فيه النار ، وألقوا إبراهيم فيها بعد أن قيدوه وكتفوه وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك .. يا الله يا واحد يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ..

ويروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير : جعل ملك المطر يقول : متى اومر فأرسل المطر ؟ فكان أمر الله أسرع ..

برود النار

قال الله تعالى **﴿ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴾** ١

قال علي بن أبي طالب : أي لا تضريه .

وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله قال : (وسلاما على إبراهيم) لآذى إبراهيم بردها ٢

مناظرة الخليل إبراهيم والنمرود

كان النمرود ملكا جبارا أدعى لنفسه الربوبية .. ناظره الخليل إبراهيم يوم خروجه من النار سالما ..

سأله النمرود : من ربك ؟

قال إبراهيم : **﴿ ربي الذي يحي ويميت ﴾** ٣

قال النمرود : أنا أحي وأميت ..

يعني أنه إذا أوتي بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر ..

---

(١) سورة الأنبياء – آية ٦٩
(٢) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص١٤٢
(٣) سورة البقرة – آية ٢٥٨

قال إبراهيم : إن الشمس تطلع كل يوم من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شئ ، فإن كنت كما زعمت من أنك تحي وتميت فائت بهذه الشمس من المغرب ..

فبهت النمرود ..

وهكذا بين إبراهيم عليه السلام ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه ..

وذكروا أن النمرود هذا كان أحد ملوك الدنيا ..

وقالوا : إنه قد ملك الدنيا أربعة : مؤمنان وكافران .. فالمؤمنان : ذو القرنين وسليمان .. والكافران : النمرود وبختنصر ..

وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة وكان طغي وبغي وآثر الحياة الدنيا [1]

هجرة الخليل إبراهيم إلى الشام ودخوله الديار المصرية واستقراره في الأرض المقدسة

بعد نجاة إبراهيم من النار ، ومحاورته للنمرود .. قرر الهجرة من مدينة أور مع زوجته سارة وابن أخيه لوط وأصحابه المؤمنين ..

ومضت قافلة الإيمان حتى عبرت نهر الفرات وانسابت في بادية الشام حيث دعا الناس إلى دين الله الواحد الأحد ، وآمن به الكثير من أهل دمشق ..

---

(١) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص١٤٤

ثم رحل الخليل إبراهيم إلى مصر وعاش فيها يدعو الناس إلى الوحدانية وكان قوي الحجة يستميل القلوب والعقول معا إلى ما يقول .. فأقبل عليه الناس .. وبقي إبراهيم عليه السلام ما شاء الله له أن يبقى في مصر .. ثم استأذن الملك في الرحيل وقد تأكد عنده أن وادي النيل لا يصلح في هذه الفترة لاحتضان الدعوة التي يدعو لها ، ولن يتيح الفرصة لرسالته كي تنتشر بسهولة بسبب سيطرة الكهان على الملوك وتحكمهم تحكما كاملا في جميع شئون الدولة ، رغم أن في عقيدة المصريين بعض ما في عقيدة التوحيد التي يدعو لها ..

وحمّل الملك الخليل إبراهيم الكثير من الهدايا والعطايا كما أهدى هاجر لسارة التي صادقتها وتعلقت بها وأحبتها خاصة بعد أن انشرح قلب هاجر لدين إبراهيم وآمنت به ..

وتحرك إبراهيم بسارة وهاجر ومن معه من المؤمنين عائدا إلى أرض كنعان ..

مولد إسماعيل عليه السلام

عاش إبراهيم عليه السلام مدة طويلة دون أن يرزقه الله بولد .. وكانت زوجته سارة حزينة من أجل ذلك ، فحملتها شفقتها على زوجها وحبها له أن تهب له جاريتها هاجر ، وقالت له : إني حُرمت من الولد فعسى

الله أن يرزقك منها غلاما تقر به عينيك .. فحملت منه وولدت اسماعيل فاشتدت الغيرة بالسيدة سارة وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها [1] أخذ إبراهيم هاجر وابنها الرضيع إسماعيل وسار بهما حيث وضعهما عند البيت ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء .. فوضعهما هناك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء [2]

فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وقالت : يا إبراهيم .. أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شئ وليس معنا ما يكفينا ، فلم يجبها ..

فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها قالت له : الله أمرك بهذا ..

قال : نعم

قالت : إذن لا يضيعنا .. ثم رجعت ..

وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية – مكان عند مدخل مكة – حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت .. ودعا الله **﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾** [3]

---

(١) د.عبد المقصود نصار ،د.محمد الطيب النجار ،السيرة النبوية ،ج ١، ص ١٦
(٢) البخاري ، أنبياء ٩ ، مسند الإمام أحمد ج ١ ، ص ٣٤٧
(٣) سورة إبراهيم – آية ٣٧

زمزم

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء الذي في السقاء حتى إذا ما نفذ عطشت وعطش ابنها ..

وجعلت تنظر إليه وهو يتلوى من الظمأ ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل من الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدا ؟ .. فلم تر أحدا .. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت حتى جاوزت الوادي وأتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا ؟ .. فلم تر أحدا .. فعلت ذلك سبع مرات ..

قال ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " فلذلك سعى الناس بينهما " [١]

وأعياها السعي ونال منها التعب والجهد فسقطت على الأرض إلى جوار الطفل وقد أيقنت بالهلاك لها وله ..

ولكن رحمة الله كانت منها ومن ولدها قريبة ..

نعم .. لقد تفجرت المياه فجأة من جوف الأرض وكونت بحيرة صغيرة تحت قدمي الطفل .. لقد تحققت الآية وأنست أفراح النهاية أحزان البداية ، فيا قدم إسماعيل أرأيت كيف يفجر الله الماء من الصخر ، ويا أم إسماعيل أرأيت أن ظلام الليل آخره الفجر ..

---

(١) السيد حسين العفاني ، الرياض النضرة في فضائل الحج والعمرة ، مكتبة ابن تيميه ، القاهرة ، ص ١٣٩

وهتفت هاجر متسائلة .. رباه .. ماذا أرى .. مياها أم سرابا ..
فمدت يدها إلى الماء وتأكدت منه وأسرعت في فزع تبلل شفتي الطفل ثم أخذت تسقيه حتى ارتوى وهدأت نفسه .. فشربت هي الأخرى .. ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت : أحمد وأشكر فضلك يا إلهي .. حقا إنك لن تُضيعنا .. فقد هيأ لها الله سبحانه وتعالى ولطفلها أسباب الحياة بعد أن كانت تظن ألا حياة ولا نجاة ..
وبعد أن شكرت هاجر ربها القادر على كل شئ .. الرحيم بعباده اتجهت إلى المياه التي كانت لا تزال تتفجر وقالت وهي تحاول جمعها زُمّي زُمّي .. أي تجمعي تجمعي ولا تضيعي في الرمال ..
ولم تتسرب المياه في الرمال .. بل تفجرت بقوة أكبر وأكبر واندفاع أشد وأشد .. ولا تزال تتفجر حتى يومنا هذا من عين زمزم التي تقع بجوار الكعبة المشرفة وعلى مقربة من جبل الصفا والتي ارتوى منها ويرتوي ملايين الملايين من المسلمين [1]

- - -

ومرت على مقربة من المنطقة قافلة لقبيلة من اليمن هي قبيلة جرهم فلاحظ رئيس القافلة الذي يعرف المنطقة خير المعرفة لكثرة ما مرّ بها في رحلاته .. لاحظ أن شيئا جديدا قد طرأ فغير أحوال المنطقة فقال : عجبا يا قوم .. إنني أرى طيورا تحوم على جبل أبي قبيس وعهدي بهذا المكان أنه لا ماء فيه ولا نبات ..

---

(١) د . أمينة الصاوي ، الكعبة المشرفة ، ص ٤١

فأجاب أحد رجاله : الطيور لا تحلق إلا حيث يوجد الماء .. وأغلب الظن أن عينا من العيون قد تفجرت قريبا من هذا المكان ..

وأرسلت القافلة أحد رجالها يتفحص المكان ويحاول معرفة ما حدث ..

وانطلق الرجل ثم عاد بعد ساعة يقول : أبشروا بالخير العميم يا آل جُرْهم .. لقد وجدت على مقربة منكم عينا يتدفق الماء منها بغزارة وقد اخضر المكان حولها وازدان بالثمار الشهية الذكية الرائحة ..

فسأله رئيس القافلة : وهل وجدت عندها أحدا من الناس ؟

قال الرجل : وجدت امرأة وطفلها الصغير ، وقد استأذنتها في النزول بجوارها والسقي من ماء العين .. فقالت : نعم .. آذن لكم على أن تكونوا ضيوفا مكرّمين لا مغتصبين ..

فقال رئيس القافلة : نحن على ارادتها وطوع أمرها .. هيا بنا إليها ..

وسارت القافلة حتى بلغت مكان زمزم .. وتم التفاهم مع هاجر على البقاء إلى جوار العين ، وأرسلوا في طلب بقية أهلهم فجاءوا وأقاموا البيوت ، وامتلأ المكان بالسكان .. وإذا بالوادي المقفر المجدب الموحش ينبض بالحياة ، ويصبح جنة من جنان الأرض ..

- - -

وشب إسماعيل .. وتعلم العربية من بني جرهم .. واستطاع أن يروض خيول البرية المتوحشة وأن يستأنسها .. فكان أول من أخضع الخيول وركبها واستعملها في تنقلاته .. وقد سرى ذلك إلى الشباب من جيرانه

الذبيح إسماعيل

ذهب إبراهيم عليه السلام لزيارة ولده إسماعيل وأمه هاجر ، ونقل إليهم بشرى وصول ولده اسحق .. ففرحا بمقدمه وبمولد اسحق .. ونام إبراهيم بجوار زمزم .. فرأى في منامه أنه يذبح ولده إسماعيل فهب من نومه مذعورا .. وأخذ يفكر في هذه الرؤية التي تعتبر في مقام الوحي لأن رؤيا الأنبياء حق ..

وعز على إبراهيم أن يذبح ولده الحبيب .. ولكن حبه لتنفيذ أوامر ربه كان أقوى من حبه للولد .. فقام يبحث عن إسماعيل .. فلما وجده قال له إني أرى في المنام أني أذبحك .. فانظر ماذا ترى ؟

قال إسماعيل في استسلام : يا أبت افعل ما تؤمر .. ستجدني إن شاء الله من الصابرين ..

وقف إبراهيم عليه السلام لحظة يفكر في الطريقة التي يذبح بها ولده .. وكأنما أحس إسماعيل بما في نفس أبيه فقال له : يا أبت اشدُد وثاقي واشحذ شفرتك فإن الموت شديد ، وإني لأخشى أن اضطرب عنده ، وأخشى إن نظرت في وجهي أن تأخذك الرحمة فلا تنفذ أمر الله فيَّ وإن أردت أن ترد قميصي على أمي فافعل عسى أن يكون هذا أسلى لها عني ..

فقال إبراهيم : نعم الولد أنت يا إسماعيل .. ونعم العون على أمر الله .. وتهيأ إبراهيم للتنفيذ ومد يده بالشفرة إلى ولده .. ولكن .. رحمة الله أدركت الغلام في اللحظة المناسبة ..

رحمة الله أدركت إسماعيل طفلا وأنقذته من الموت عطشا بتدفق زمزم وأدركته وقد بلغ السعي مع أبيه .. فأنزلت كبشا كبيرا ذبحه إبراهيم فداء لابنه إسماعيل عليهما السلام ..

حقا إنه البلاء العظيم .. الأب يُوحَى إليه أن يذبح ابنه .. والابن يمتثل صابرا ويساعد أباه على تنفيذ أمر الله ..

حقا إنها الإرادة الإلهية الحكيمة التي شاءت أن تصور إحدى شعائر الحج تصويرا حسيا دقيقا ليثبت في أذهان الناس على مرّ العصور .. فكلما أقبل العيد الأكبر نحر المسلمون الضحايا في منى وفي كل مكان نحروها للذكرى العاطرة والعبرة والموعظة ..[1]

زواج إسماعيل

فكرت هاجر في زواج ولدها إسماعيل .. وكانت تريد له زوجة صالحة تكون أهلا لإنجاب الذرية الصالحة التي وعد الله سبحانه وتعالى بأن يبارك فيها ..

وقبل أن تصل هاجر إلى المرأة المناسبة لولدها كان إسماعيل قد اتفق على الزواج من إحدى بنات جيرانهم واسمها صدًا ..

ولم تعترض هاجر على ذلك رغم أنها لم تكن في قرارة نفسها راضية عن هذا الزواج ..

---

(١) د . أمينة الصاوي ، الكعبة المشرفة ، ص ٤٧

وأحس إبراهيم عليه السلام أن شيئا غير عادي قد حدث فركب راحلته وانطلق إلى مكة .. وما إن وصل حتى أسرع إلى بيت إسماعيل وطرق الباب ..

فتحت له صدًا فقرأ عليها السلام فلم ترد وسألته عما يريد ؟

قال : أين إسماعيل

قالت : خرج يبتغي لنا

قال : وكيف حالكم

قالت : نحن في أسوأ حال .. لا نكاد نجد القوت الضروري والماء قد غلظ ، فلم يعد يروينا أو يطفئ ظمأنا ..

فساءه أن يكون هذا ردها خاصة وأنه يعلم أن الحياة لم تكن كما ذكرت ولم يعجبه أن تكون هذه المرأة زوجا لولده الذي يعدّه لحمل الرسالة من بعده .

وهمت صدًا أن تغلق الباب .. فصاح بها إبراهيم عليه السلام : إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له يغير عتبة بابه ..

فلما عاد إسماعيل من الخارج آنسى شيئا فسأل زوجته : هل جاءكم من أحد ؟

قالت : نعم .. جاءنا شيخ مُسن تبدو عليه آثار السفر الطويل فسألني عنك فأخبرته ، وسألني عن عيشنا فشكوت له الجهد والشدة ..

فقال إسماعيل : وهل أوصاك بشئ ؟

قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام وأقول لك غير عتبة بابك .

فقال إسماعيل : ذاك أبي .. وقد أمرني أن أفارقك الحقي الساعة بأهلك وعاد إبراهيم إلى سارة واسحق والفئة المؤمنة في كَنْعَان وأقام هناك ما شاء الله له أن يقيم ثم رجع إلى مكة فوجد إسماعيل متزوجا زوجة أخرى فسألها عن إسماعيل : قالت : ذهب يتصيد ..

فسألها عن عيشهم ..

قالت : نحمد الله على ما نحن فيه من خير وسعة ونعمة كبرى .. وأتت له بإناء فاغتسل ..

ثم قال لها : هل عندك ضيافة ؟

قالت : نعم .. وجاءت له باللحم واللبن والشراب .. وأكرمت وفادته .. فدعا لها بالبركة ..

وقبل أن ينصرف طلب منها أن تقرئ زوجها السلام وتقول له : قد استقامت عتبة بابك ..

فلما جاء إسماعيل عليه السلام وجد ريح أبيه فقال لامرأته : هل جاءك أحد ؟

قالت : نعم .. شيخ هو أحسن الناس وجها ، وأطيبهم ريحا فقال لي كذا وكذا ، وقدمت له كذا وكذا .. وهو يقرئك السلام ويقول لك : قد استقامت عتبة بابك .. [1]

فقال إسماعيل .. هذا أبي .. وقد أمرني أن أحتفظ بك زوجة لي .

---

(١) د . عبد المقصود نصار ، د . محمد الطيب النجار ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ١٨

بناء إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام الكعبة

لبث إبراهيم عليه السلام بعيدا عن مكة ما شاء الله ثم عاد إليها فوجد ابنه إسماعيل يَبْرِي نبالا له تحت دوحة قريبة من زمزم ..

فلما رآه إسماعيل أسرع إليه وعانقه في حنان .. وبعد أن استراح إبراهيم عليه السلام نظر إلى ولده متفحصا ثم قال :

يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر ..

قال إسماعيل : فاصنع يا أبت ما أمرك الله به ..

قال إبراهيم : وتعينني يا ولدي ؟

قال إسماعيل : وأعينك يا أبت

قال إبراهيم : إن الله أمرني أن أبني هنا بيتا ..

وأشار إبراهيم إلى الربوة الحمراء المرتفعة ذات الأطلال .. [1]

وعلى الفور بدأ إبراهيم عليه السلام ومعه ولده إسماعيل يطهران مكان البيت من الصخور والأحجار .. وعندما تم لهما ذلك وظهرت القواعد الأساسية للبيت أخذا معا في بنائه وهما يقولان : " ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم " .

وكان إبراهيم عليه السلام يبني وإسماعيل يناوله الأحجار إلى أن أقيم البناء واكتمل .. فقال إبراهيم عليه السلام لولده :

إئتني بحجر أصنعه هنا ليكون علما للناس منه يبدأون الطواف ..

---

(١) د . أمينة الصاوي ، الكعبة المشرفة ، ص ٥٥

فذهب إسماعيل إلى بطن الوادي يبحث عن حجر مميز يصلح لهذه الغاية .. وتأخر إسماعيل في البحث .. فجاء جبريل عليه السلام بالحجر الأسعد ، وكان الله سبحانه وتعالى قد أودع هذا الحجر جبل أبي قبيس في مكة حين غرقت الأرض في طوفان نوح عليه السلام ..

فوضعه جبريل عليه السلام في مكانه ..

وعاد إسماعيل فرأى الحجر الأسعد فأخذته الدهشة من شكله وضوئه ..

فقد كان حجرا يتلألأ بنور وهّاج فأضاء بنوره المكان من حوله ..

قال إسماعيل عليه السلام : ما هذا يا أبت ؟ ومن جاءك بهذا الحجر ؟

قال إبراهيم عليه السلام : جاء به جبريل عليه السلام يا ولدي ..

وبعد بناء البيت شرح جبريل عليه السلام لإبراهيم المناسك كلها ..

- - -

آذان إبراهيم بالحج

رُوي عن ابن عباس أنه قال : لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قيل له : أذن في الناس بالحج ..

قال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟!

قال : أذن وعليّ البلاغ ..

فنادى إبراهيم : " أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فحجوا قال : فسمعه ما بين السماء والأرض ، أفلا ترى الناس يجيئون من أقصى الأرض يلبون " [1]

وعنه : قام إبراهيم خليل الله على الحجر فنادى :

أيها الناس : كتب عليكم الحج ، فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء ، فأجابه من آمن معه ممن سبق في علم الله أن يحج إلى يوم القيامة .. لبيك اللهم لبيك ..

قال ابن عباس : يأتوك رجالا أي مشاة ..

وقال ابن جرير : وعلى كل ضامر أي الإبل المهازيل .. يأتين من كل فج عميق ، يعني مكان بعيد [2]

أجاب من جرى القدر بحجه (لبيك اللهم لبيك)

وما تزال أفئدة الناس تهوي إلى البيت الحرام وترف إلى رؤيته والطواف به .. الغني القادر الذي يجد وسيلة الركوب تنقله ، والفقير المعدم الذي لا يجد إلا قدميه وعشرات الألوف من هؤلاء يتقاطرون من فجاج الأرض البعيدة تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم عليه السلام منذ آلاف الأعوام [3]

- - -

---

(١) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية عن أحمد بن منيع بسند حسن ..
(٢) تفسير الطبري ، ج ٩ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧
(٣) الشيخ سيد قطب ، ظلال القرآن ، ج ٤ ، ص ٢٤١٨

للتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة ، عرّف الله مكانه إبراهيم عليه السلام وملكه أمره ليقيمه على هذا الأساس فهو بيت الله وحده دون سواه ، وليطهره للحجيج والقائمين فيه للصلاة ، فهؤلاء هم الذين أنشئ لهم البيت ..

وهو أول قبلة يتوجه إليها المسلمون ورثة إبراهيم بالإيمان والتوحيد الصحيح ، فالعقيدة هي تراث القلب المؤمن لا تراث العصبية العمياء ..

(وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل)

مشهد حاضر كما لو كانت الأعين تراهما اللحظة وتسمعهما في آن واحد ، لا رؤيا الخيال ..

نغمة الدعاء ، وظلال الدعاء ، وجو الدعاء يُسمع ويُرى بعد أن كان غائبا ذاهبا ..

وماذا في ثنايا الدعاء ؟ إنه أدب النبوة وإيمان النبوة ، وشعور النبوة بقيمة العقيدة في هذا الوجود ، وهو الأدب والإيمان والشعور الذي يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء ، وأن يعمقه في قلوبهم ومشاعرهم ..

﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ [1]

إنه رجاء العون من ربهما في الهداية إلى الإسلام والشعور بأن قلبيهما بين إصبعين من أصابع الرحمن ، وإن الهدى هداه ، وأنهما لا حول لهما ولا قوة إلا بإذن الله ..

---

(١) سورة البقرة – آية ١٢٨

(ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)

هذا طابع الأمة المسلمة التضامن .. تضامن الأجيال في العقيدة .. وهي دعوة تكشف عن اهتمامات القلب المؤمن .. إن أمر العقيدة هو شغله الشاغل ، وهو همه الأول ، وشعور إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بقيمة النعمة التي أسبغها الله عليهما ، نعمة الإيمان ، تدفعهما إلى الحرص عليها في عقبهما ، وإلى دعاء ربهما ألا يحرم ذريتهما هذا الإنعام الذي لا يكافئه إنعام ، لقد دعوا الله ربهما أن يرزق ذريتهما من الثمرات ، ولم ينسيا أن يدعواه ليرزقهم من الإيمان ، وأن يريهم جميعا مناسكهم ويبين لهم عبادتهم ويتوب عليهم وأن لا يتركهم بلا هداية في أجيالهم البعيدة (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم)

وكانت الاستجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هي بعثة هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بعد قرون وقرون ، بعثه رسول من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ..

هذا البيت الحرام الذي قال فيه ابن عباس : لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض ، وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه وهو خليل الرحمن عليه السلام ..

تلك قصة بناء البيت الحرام وأذان الخليل بالحج إليه ليذكروا اسم الله لا أسماء الآلهة المدعاة ..

فهو بيت حرام .. حرمات الله فيه مصونة .. وأولها عقيدة التوحيد ، وفتح أبوابه للطائفين والقائمين والركع السجود إلى جانب حرمة الدماء وحرمة العهود والمواثيق وحرمة الهدنة والسلام ..

تلك قصة البيت .. [1]

- - -

وتمضي بنا قافلة الزمان ..

ويتأخر إبراهيم عليه السلام في زيارة مكة ..

ويعلم إسماعيل عليه السلام نبأ وفاة سارة .. ثم زواج أخيه اسحق ..

فيتجه إلى الشمال .. إلى مدينة الخليل لتعزية أبيه وتهنئة أخيه ..

وهناك يعلم أن أخاه قد رُزق بولدين توأمين هما : رعيْصُو ويعقوب ..

واحتفل إبراهيم واسحق ومدينة الخليل كلها بإسماعيل مدة بقائه معهم ..

ثم عاد إسماعيل إلى مكة فوجد أمه على فراش الموت تحتضر .. فأسرع إليها فإذا هي شاخصة ببصرها إلى الكعبة تبتهل إلى الله في صمت والناس من حولها في خشوع رهيب كأنما على رؤوسهم الطير

وما هي إلا لحظات حتى لفظت أنفاسها الأخيرة ..

وبكى إسماعيل أمه ، وبكى الناس جميعا تلك المرأة الفاضلة المؤمنة الصالحة التى اختارها الله أما للعرب جميعا ..

ودفنت هاجر في حجر إسماعيل ..

---

(١) السيد بن حسين العفاني ، الرياض النضرة ، ص ٩٧ - ٩٩

ثناء الله ورسوله الكريم على عبده وخليله إبراهيم

اما وفي إبراهيم عليه السلام ما أمره به ربه من التكاليف العظيمة جعله للناس إماما يقتدون به ويهتدون بهديه .. وسأل إبراهيم ربه أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية في نسبه وخالدة في عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام وسلمت إليه الإمامة بزمام واستثني من نيلها الظالمون ، واختص بها من ذريته العلماء العاملون ..

يقول الله تعالى ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب** ﴾ [1]

فكل نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته ، وهذه مرتبة عليا لا تباهى ، ذلك أنه ولد له ولدان عظيمان : إسماعيل من هاجر ، ثم اسحق من سارة ..

وولد له يعقوب – وهو إسرائيل – الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم ..

أما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ..

- - -

يقول الله تعالى ﴿ **وإذا قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى . قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي . قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا . وأعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾ [2]

---

(١) سورة الحديد – آية ٢٦
(٢) سورة البقرة – آية ٢٦٠

وقد أجاب الله عز وجل إبراهيم إلى ما سأل فأمره أن يعمد إلى أربعة من الطيور وأن يمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه في بعض ثم يقسمه قسما ويجعل على كل جبل منهن جزءا ، ففعل ما أمر به .. ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن .. فلما دعاهن جعل كل جزء يطير إلى صاحبه ، وكل ريشة تأتي إلى أختها حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه .. وهو ينظر إلى قدرة الله الذي يقول للشئ كن فيكون ، فأتين إليه سعيا ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانا .. وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علما يقينا لا يحتمل النقيض ، ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانا ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله ..

- - -

ونزه الله عز وجل خليله إبراهيم عليه السلام عن أن يكون يهوديا أو نصرانيا ، وبين أنه كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين ..

يقول الله تعالى **﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين شاكرا لأنعمه . اجتباه ربه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه في الدنيا حسنة . وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾** [1]

---

(١) سورة النحل – آية ١٢٠ : ١٢٣

وقد رُوي عن ابن عباس أنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر فمحيت ، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال : " قاتلهم الله والله إن استقسما بالأزلام قط " [1]

وقوله (أمة) أي قدوة إماما مهتديا داعيا إلى الخير يقتدى به فيه ..

(قانتا لله) أي خاشعا له في جميع حالاته وحركاته وسكناته

(حنيفا) أي مخلصا على بصيرة ، ولم يك من المشركين ..

(شاكرا لأنعمه) أي قائما بشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ..

(اجتباه) أي اختاره الله لنفسه واصطفاه لرسالته ، واتخذه خليلا ، وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة ..

ويُرغب الله تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم ، وقد قام بجميع ما أمره به ربه ..

ومدحه الله تعالى بذلك فقال **﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾** [2]

وكان إبراهيم هو العبد الذي وفى وزاد على الوفاء بالإحسان

قالوا : في جميع ما أمر به ، وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه ، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ، ولا ينسيه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار ..

---

(١) البخاري ، ج ٥ ، ص ٨٧ كتاب المغازي ، وأحمد المسند ج ١ ، ص ٣٦٥
(٢) سورة النجم – آية ٣٧

ولهذا اتخذه الله خليلا .. والخلة هي غاية المحبة ..
وكذلك نال هذه المرتبة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .. كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ..
يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس .. إن الله اتخذني خليلا " ..
وقال صلى الله عليه وسلم في آخر خطبة خطبها : " أيها الناس .. لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم خليل الله " [1]

- - -

وقد ذكر الله تعالى إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم كثيرا بالثناء عليه والمدح له .. فقيل إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعا ، منها خمسة عشر في سورة البقرة وحدها ..
وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الأنبياء في سورتي الأحزاب والشورى ..
يقول الله تعالى **﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾** [2]

---

(١) البخاري ، فضائل الصحابة ، ومسلم ج ٧ ، ص ١٠٨ ، ومسند الإمام أحمد ج٣ ، ص ١٨ ، ج٤ ، ص ٤
(٢) سورة الأحزاب – آية ٧

وقولـه تعـالى ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ [1]

ثم هو أشرف أولي العزم من الرسل بعد محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي وجده عليه السلام في السماء السابعة مسندا ظهره بالبيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ..

قال صلى الله عليه وسلم : " إن الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن "

رواه الإمام أحمد

أما المقام المحمود الذي أخبر عنه صلوات الله وسلامه عليه بقوله :

" أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر " ثم ذكر استشفاع الناس بآدم ، ثم بنوح ، ثم بإبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، فكلهم يحيد عنها حتى يأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيقول : " أنا لها ، أنا لها " ..

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولي العزم بعد محمد صلى الله عليه وسلم أمر المصلى أن يقول في تشهده ما ثبت في الصحيحين من حديث كعب بن عجرة قال :

قلنا يا رسول الله .. هذا السلام عليك قد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟

---

(١) سورة الشورى – آية ١٣

قال : " قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آهل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد " [1]

ذكر قصره في الجنة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن في الجنة قصرا من لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهى أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا "

رسول الله صلى الله عليه وسلم يصف إبراهيم عليه السلام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت عيسى بن مريم ، وموسى وإبراهيم ، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جسيم .. قالوا له : فإبراهيم ؟ قال صلى الله عليه وسلم انظروا إلى صاحبكم " يعني نفسه ..

وفاة إبراهيم عليه السلام

انتشر دين إبراهيم عليه السلام في ربوع الأرض وأصبح له في كل بقعة من بقاعها داعية يدعو باسمه إلى عبادة التوحيد ..

وأحس إبراهيم بعد ذلك بأنه قد أدى الرسالة وعمل ما استطاع على تبليغ دعوة الواحد الأحد .. فركن إلى الهدوء والراحة في مدينة حبرون أو مدينة الخليل كما كانت تسمى ..

---

(١) البخاري ، ج ٣ ، ص ٣١٥ ، ج ٤ ، ص ١٩٧

وعلم إسماعيل بمرض أبيه فانطلق على جواده إلى حبرون .. وهناك وجد إبراهيم عليه السلام قد استسلم إلى مرض الموت .. فدخل عليه وسأله :

كيف حالك اليوم يا أبتاه ؟

فابتسم إبراهيم عليه السلام في ارتياح وقال :

أصبحت اليوم بارئا بحمد الله تعالى يا بني ..

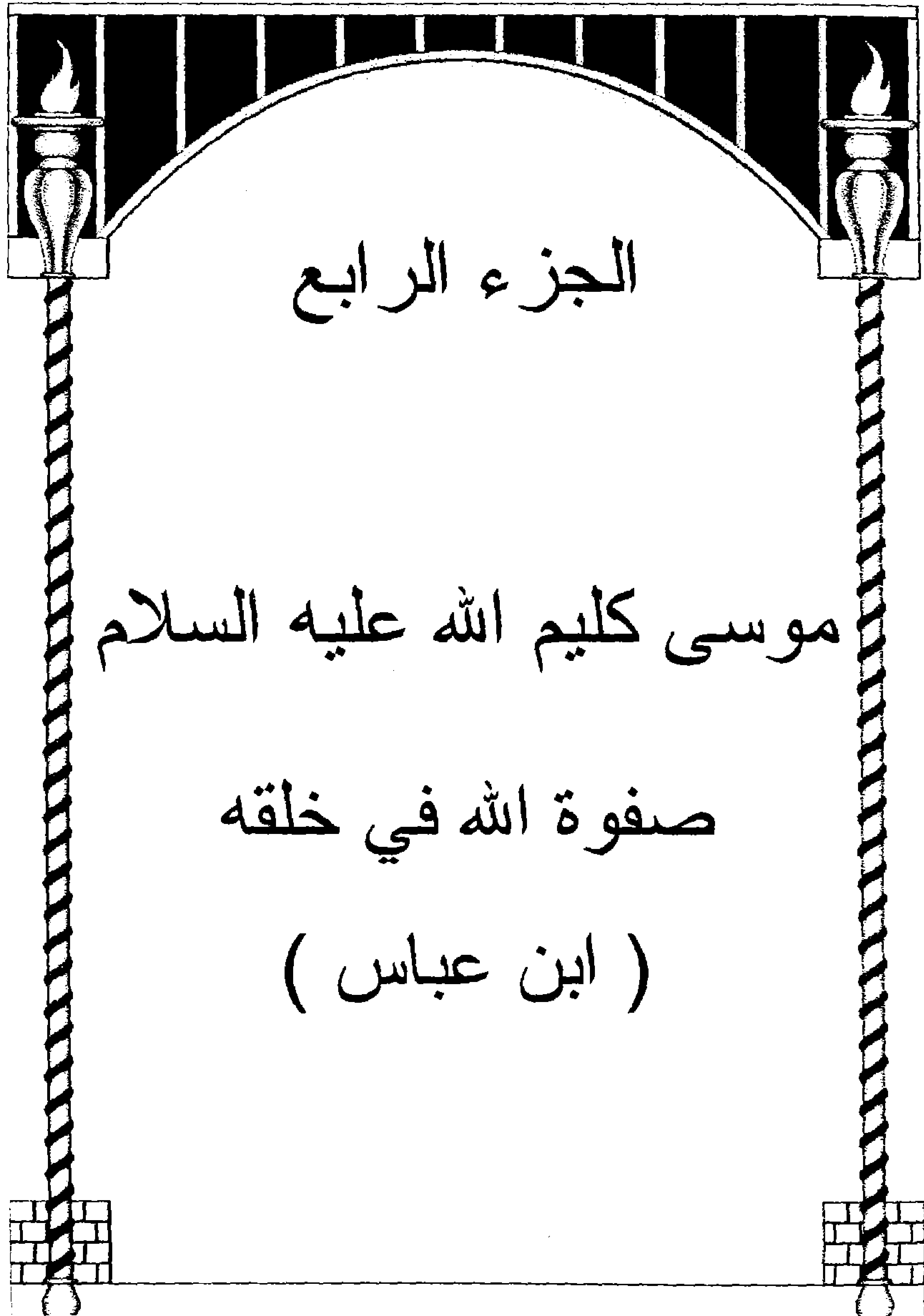
ثم جمع إبراهيم أولاده وأحفاده وقال لهم : يا بَنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

و أسلم الروح إلى خالقها .. ودفن في قرية حبرون ببيت المقدس [1]

ثم المكان باسمه وهو مدينة الخليل ، ونسأل الله أن يعيدها إلى ديار المسلمين ..

---

(١) د . أمينة الصاوي ، الكعبة المشرفة ، ص ٦٤



الجزء الرابع

موسى كليم الله عليه السلام

صفوة الله في خلقه

(ابن عباس)

هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ..

وقد عاش بنو اسرائيل على ضفاف نيل مصر ينعمون بالخيرات حتى تولى حكم مصر فرعون ، الذي أذاقهم سوء العذاب وجعلهم عبيدا له ، ونصب نفسه إلها من دون الله ، وأمرهم أن يعبدوه وحده ..

يقول الله تعالى ﴿ **إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا** ﴾

أي تجبر وعتا وطغى وبغى ، وآثر الحياة الدنيا ، وأعرض عن طاعة الله تعالى ، وقسم رعيته إلى فرق متعددة ، يستضعف فريقا منهم وهم شعب بني اسرائيل الذين هم سلالة نبي الله يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم خليل الله ، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض .. وكان هذا الفرعون الفاجر يذبح أبناء بني اسرائيل ويستحي نساءهم ..

وكانت هناك بشارة مشهورة في بني اسرائيل من أنه سيخرج من ذرية إبراهيم عليه السلام غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه ..

وقد رُوي أن فرعون رأى في منامه كأن نارا قد أقبلت من نحو بيت المقدس فاحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بني اسرائيل ، وقد هاله ذلك ، فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن تفسير رؤياه ، فقالوا له يولد غلام من بني اسرائيل يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه .. فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك البنات ..

واستمر فرعون على قتل كل مولود ذكر لبني اسرائيل حتى قال له معاونوه إن الكبار من بني اسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يُذبحون

وإن استمر الحال على ذلك فإنهم سيفنون وسنضطر إلى مزاولة الأعمال الدنيا التي يباشرونها .. فأمر فرعون بقتل المواليد الذكور عاما وعدم القتل عاما ..

ووضعت أم موسى ابنها هارون في العام الذي لا يقتل فيه الغلمان ..

وفي العام التالي حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها الهم والحزن يقول الله تعالى ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا . إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون** ﴾ ١

في هذه الآيات المباركات يأمر الله تعالى أم موسى بإرضاعه ليألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها بعد وقوعه في يد فرعون ، فلو لم يأمرها بإرضاعه ربما كانت تسترضع له مرضعة فيفوت ذلك المقصود ..

ثم يقول لها إذا خفت عليه من القتل فألقيه في اليم ولا تخافي عليه من الغرق ..

ففعلت أم موسى ما أمرها الله به .. وسار التابوت الذي وضعت فيه موسى حتى مرّ بدار فرعون ..

كانت امرأة فرعون تجلس في بعض حاشيتها في قصر فرعون المطل على النيل وحانت منها التفاتة فرأت جسما أسود يتحرك مع دُفاع الماء

---

(١) سورة القصص – آية ٧ : ٩

فأمرت الخدم أن يسرعوا بالتقاطه وحمله إليها .. ولم يمض إلا القليل من الوقت حتى كان أمامها ، وتأملته فإذا هو صندوق صنع بإحكام ، وطلي بالقار حتى لا ينفذ الماء إلى داخله ، وأمرت بفتحه فإذا فيه طفل يتلألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية ..

نظرت امرأة فرعون إلى الطفل طويلا فرأت من قسماته وملامحه ما ملأ قلبها عطفا وأحبته كثيرا ، واستبشعت أن يُقتل مثله فجمعت شجاعتها وتحدثت إلى فرعون في أمره ، وتلطفت في العرض فرجته أن يبقي على حياة الطفل لعل في حياته نفعا لهما إذ يصنعانه بإرشادهما ويربيانه بتوجيههما وهذا خليق أن يصله بهما فكرا وعاطفه فعسى أن يجعلاه بمنزلة الابن ..

وفرعون وإن كان ملكا واسع الملك اجتمع له كل أسباب القوة والثروة يحتاج ككل رجل إلى الأبناء ، يتلذذ بما يسبغ عليهم من عطف وينعم بتعلقهم به واعتمادهم عليه ، فاستجاب لامرأته ولنداء الطبيعة في داخل نفسه ..

واستقر موسى في بيت فرعون .. ولكن .. شيئا حدث سبب كثيرا من الهم والحزن لامرأة فرعون ، ذلك أن الطفل لم يقبل على ثدي أي امرأة من المراضع !!

واستبد القلق بأم موسى وأصبحت ولهى فقالت لأخته قصي أثره وتسمي خبره .. وعلمت أخت موسى أنه في قصر فرعون وأنه يأبى

الرضاعة ، فأسرعت إلى القصر تقول إن لديها علاج لهذا الأمر وأنها تدلهم على أهل بيت يكفلونه لهم وهم له ناصحون ..

قال ابن عباس : لما قالت ذلك قالوا لها : ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ..

قالت : رغبة في سرور الملك ورجاء منفعته [1]

وعرضوا موسى على أمه فأقبل على ثديها حتى ارتوى .. ففرحوا بذلك فرحا عظيما .. وعرضت آسية (امرأة فرعون) على أم موسى أن تكون عندها ترضع موسى وتحسن إليها ، فأبت عليها وقالت : إن لي بعلا وأولادا ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معي ..

فأرسلته معها ورتبت لها راتب وأجرت عليها النفقات والكساوي والهبات فرجعت تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شملها بشمله ٢

وهكذا رجعت أم موسى إلى بيتها ومعها ابنها موسى .. وأيقنت أن الله منجز وعده ..

- - -

ولما أتم موسى الرضاعة عاد إلى بيت فرعون .. ودخلت آسية به على فرعون فجعله في حجره ، تناول موسى لحية فرعون وشدها ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله نبيه إبراهيم أنه رغم أنه يرثك ويعلوك ويصرعك فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ..

---

(١) تفسير الطبري ، ج ٢٠ ، ص ٢٣

(٢) تفسير الطبري ، ج ٢٠ ، ص ٢٧

وجاءت امرأة فرعون تسعى إليه فقالت : ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ قال : ألا ترينه .. يزعم أن يصرعني ويعلوني ؟

فقالت : اجعل بيني وبينك أمرا تعرف به الحق .. ائتني بثمرة وجمرة فقربهن إليه فإن أخذ الثمرة واجتنب الجمرة عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرة وترك الثمرة علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرة على الثمرة وهو يعقل ..

فقرب إليه الجمرة والثمرة فتناول الجمرة ..

فانتزعها منه مخافة أن تحرق يده .. فقالت امرأة فرعون : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنها بعدما كان هم بها ..

- - -

وتمضي بنا الأيام .. ويكبر موسى حتى يصبح شابا ..

وبينما هو يمشي بين الناس إذا به يرى رجلين يتشاجران أحدهما إسرائيلي من قومه والآخر من آل فرعون فاستغاثه واستنجد به الإسرائيلي فضرب موسى عليه السلام الفرعوني بقبضة يده فقتله وهو لا يريد قتله ١

وقد ندم موسى على فعلته واستغفر ربه ، فغفر له .. ذلك أن موسى لم يكن يبغي قتل هذا الفرعوني وإنما كان يريد زجره وردعه ..

وأصبح موسى في المدينة خائفا ..

---

(١) د. محمد سيد طنطاوي ، مصحف الأزهر وبهامشه التفسير الميسر ، هامش ص ٣٢٤

وبينما هو كذلك إذا بالرجل الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس يستغيثه على آخر قد قاتله فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ومخاصمته وقال له : إنك لغوي مبين .. ثم أراد أن يبطش بذلك الفرعوني الذي هو عدو لموسى وللإسرائيلي فيردعه ويخلصه منه ..

فلما عزم على ذلك وأقبل على القبطي قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ..

القائل بذلك هو القبطي .. وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن القائل هو الإسرائيلي لما رأى من غضب موسى عليه السلام ، وقوله له (إنك لغوي مبين) وهو لا يتفق وسياق النظم الكريم ١

وقد بلغ فرعون أن موسى قتل رجلا من شيعته فأرسل في طلبه وسبق جند فرعون رجل صالح جاء موسى مشفقا عليه وأخبره بأن الجند يبحثون عنه ليقتلوه ونصحه بأن يخرج من المدينة ..

وخرج موسى من مصر خائفا وهو لا يدري أين يتوجه ولا إلى أين يذهب ..

وسار موسى عليه السلام في طريقه الذي رسمه الله له حتى ورد ماء مدين .. فوجد هناك زحاما أمام النبع .. وشاهد فتاتين بعيدتين عن المكان تنتظران دورهما فسألهما عن وقوفهما بعيدا ؟

---

(١) الشيخ محمد محمد عبد اللطيف ، أوضح التفاسير ، الطبعة الثانية ص ٤٧٠

فقالتا : إننا ننتظر هؤلاء الناس حتى ينصرفوا ولا نريد مزاحمة الرجال ، وقد جئنا نسقي الأغنام مضطرين لأن أبانا شيخ كبير ضعيف لا يستطيع الإتيان إلى هنا .. وها نحن ننتظر كما ترى ..

وسقي موسى للفتاتين أغنامهم .. ثم تولى إلى ظل شجرة قالوا أنها من السمر وروى ابن جرير عن ابن مسعود أنه رآها خضراء ترف فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ١

قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل وورق الشجر وكان حافيا فسقطت نعلا قدميه من الحفاء وجلس إلى الظل – وهو صفوة الله من خلقه – وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق ثمرة ..

وعادت المرأتان إلى أبيهما فيقال أنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه بما كان من أمر موسى عليه السلام ، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه .. فجاءته تمشي على استحياء وقالت له إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ..

وذهب معها موسى وقص على أبيها ما كان من أمره في خروجه من مصر فرارا من فرعون وطمأنه الشيخ بنجاته من سلطان فرعون ..

---

(١) تفسير الطبري ، ج ٢٠ ، ص ٣٥ : ٣٧

قالت إحدى الفتاتين **﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾** ١

فقال لها : ما يدريك بقوته وأمانته ؟

فقالت : أما قوته فما رأيت منه في الدلو حين سقى لنا لم أر رجلا قط أقوى في ذلك السعي منه ، وأما الأمانة فإنه نظر إلي حين أقبلت إليه وشخصت له ، فلما علم أني امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ، ثم قال لي امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين .. فسُرّي عن أبيها وصدقها ..

وقال شعيب لموسى عليهما السلام **﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾** ٢

وهذا هو مهر ابنته .. أن يعمل لدى والدها مدة ثماني حجج .. وإن أتم عشرا فمن عنده ..

وقد رُوي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" سألت جبريل أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما "

ولما قضي موسى الأجل اشتاق إلى أهله فاستأذن الشيخ في السفر إلى مصر فأذن له ..

---

(١) سورة القصص – آية ٢٦

(٢) سورة القصص – آية ٢٧

ولما سار بأهله تاهوا في الطريق .. وكانت ليلة مظلمة باردة .. وبينما هو كذلك أبصر عن بعد نارا تأجج في جانب الطور (طور سيناء) فقال لأهله : امكثوا ، إني آنست نارا لعلي آتي منها بعود مشتعل ينير لنا الطريق أو استعلم من عندها عن الطريق ..

قال المفسرون : لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج (الشوك) وكل ما لتلك النار في اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد .. فوقف متعجبا ، وكان موسى في واد اسمه (طوى) وكان مستقبل القبلة وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب فناداه ربه بالوادي المقدس طوى فأمره الله تعالى أولا بخلع نعليه تعظيما وتكريما وتوقيرا لتلك البقعة المباركة ولا سيما في تلك الليلة المباركة ..

ثم خاطبه الله تعالى **﴿ إني أنا الله رب العالمين ﴾ ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا فأعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾**

أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له ..

ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار وإنما الدار الباقية يوم القيامة التي لا بد من وجودها لتجزى كل نفس بما تسعى من خير وشر .. وحضه وحثه على العمل لها ومجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه واتبع هواه

وسأل الله موسى عليه السلام **﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾**

قال موسى : هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ..

فإن قيل ما فائدة السؤال في قوله تعالى **﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾** وهو أعلم بما في يده ، قلنا فائدته تأنيسه وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب وهيبة الإجلال وقت التكلم معه ، كما يرى أحدنا طفلا قد داخلته هيبة وخوف وفي يده فاكهة أو غيرها فيلاطفه ويؤانسه بقوله ما هذا الذي في يدك ؟ مع أنه عالم به ..

الثاني : أنه أراد بذلك أن يقر موسى عليه السلام ويعترف بكونها عصا ويزداد علمه بكونها عصا رسوخا في قلبه فلا يحوم حوله شك إذا قلبها ثعبانا أنها كانت عصا ثم انقلبت ثعبانا بقدرة الله تعالى ، وأن يقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه فيتنبه إلى القدرة الباهرة ..

فإن قيل : كيف زاد موسى على حرف الجواب وليس ذلك من شيمة البلغاء خصوصا في مخاطبة الملك الأعلى ؟

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إنه لما قال عصاي سئل سؤالا آخر فقيل له ما تصنع بها فأجاب بباقي الآية .. الثاني إنما عدد فوائدها وبين حاجته إليها خوفا من أن يؤمر بإلقائها كما أمر بإلقاء النعلين .. الثالث أنه ذكر ذلك لئلا ينسب إليه العبث في حملها ..

فإن قيل : قد نقل أنها كانت تضئ له بالليل وتدفع عنه الهوام وتثمر له إذا اشتهى الثمار فيغرسها في الأرض فتثمر من ساعتها ويركزها فينبع

الماء من مركزها فإذا رفعها نضب (أي الماء ، أي غار في الأرض) وكان يستقي بها فتطول بطول البئر وتقصر بقصره ، فهلا عدد هذه المنافع ..

قلنا : كره أن يشتغل عن سماع كلام الله تعالى بتفصيل منافعها ، ففصل البعض وأجمل الباقي بقوله (ولي فيها مآرب أخرى) والله أعلم بما أجمله .. الثاني : أنه ذكر المنافع التي هي الزم له وحاجته إليها أمس .. وإن كانت المنافع التي أجملها أعجب وأغرب ..

فإن قيل : قد ذكر الله تعالى عصا موسى عليه السلام بلفظ الحية والثعبان والجان ، وبين الثعبان والجان تناف .. لأن الجان (الحية الصغيرة) والثعبان (الحية العظيمة) ..

قلنا : أراد الله تعالى أنها في صورة الثعبان العظيم وخفة الحية الصغيرة وحركتها ويؤيد قوله (فلما رآها تهتز كأنها جان)

الثاني : أنها كانت في أول انقلابها تنقلب حية صغيرة صفراء دقيقة ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانا فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها .. ١

- - -

وبعد أن سأل المولى تعالى نبيه موسى عليه السلام عما في يمينه وقول موسى إنها عصاي ..

---

(١) الإمام زين الدين محمد بن أبي بكر عبد القادر بن عبد المحسن الرازي الحنفي ، غرائب آي التنزيل ، ج ٤ ، ص ٣٠٢ – ٣٠٦ بتصرف

أمر الله تعالى موسى أن يلقها إلى الأرض

فألقاها .. فإذا هي حية عظيمة ضخمة هائلة .. فهرب موسى .. فناداه ربه قائلا له (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين)

فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها .. فأمسك بذنبها فلما استمكن منها إذا هي قد عادت عصا كما كانت ..

ثم أمره الله بإدخال يده في جيبه .. ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء ..

اذهب إلى فرعون

أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون وأن يبلغه أن الله هو الإله المعبود .. اذهب يا موسى ومعك معجزتان تؤيد بهما كلامك وتعلوا بهما على كل من كفر بالله وعبد فرعون من دون رب العالمين ..

وسمع موسى عليه السلام أمر ربه فرفع يديه إلى الله عز وجل وناداه متضرعا .. يا رب إنك تعلم إنني كنت في بلدي مصر عند فرعون وآل فرعون وإني قتلت منهم رجلا فأخاف أن يقتلون ولا أتمكن من دعوتي وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فاجعله معي وزيرا يساعدني ويعينني على أداء رسالتك إليهم ..

ولم يكن مراد موسى بقوله (ردءا يصدقني) أن يقول له صدقت في دعوى الرسالة ، فإن ذلك لا يفيده عند فرعون وقومه الذين كانوا لا يصدقونه مع وجود تلك الآية الباهرة والمعجزات الظاهرة بل مراده أن

يلخص حججه بلسانه ويبسط القول فيها ببيانه ويجادل عنه بالحق فيكون ذلك لتصديقه ١

قيل إنه أصابه في لسانه لثغة بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه ، والتي كان فرعون أراد اختبار عقله حين أخذ بلحيته وهو صغير فهم بقتله ، فخافت عليه آسية زوجة فرعون وقالت إنه طفل فاختبره بوضع ثمرة وجمرة بين يديه فهم بأخذ الثمرة فصرف الله يده إلى الجمرة فأخذها ووضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها فسأل الله زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله ، ولم يسأل زوالها بالكلية ..

قال الحسن البصري : والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة ولهذا بقيت في لسانه بقية .. ٢

وقد أنعم الله تعالى على موسى عليه السلام بإجابة دعوته فقال تعالى ﴿ **سنشد عضدك بأخيك** ﴾ فالمراد أنه جعله عضدا له وناصرا ومعينا ثم قال الله تعالى له اذهب أنت وأخوك إلى فرعون وقولا له ما أمرتكما به برفق ولين وادعواه إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وأن يفك أسارى بني اسرائيل من قبضته وقهره وسطوته ويتركهم يعبدون ربهم ويتفرغون لدعائه وتوحيده

- - -

---

(١) الإمام الرازي الحنفي ، غرائب آي التنزيل ، ص ٣٦٠
(٢) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص ٣١٦

فذهب موسى وأخيه هارون إلى فرعون ودعاه إلى عبادة الله الواحد وقالا له إنا رسولا رب العالمين ..

فتكبر فرعون في نفسه وطغى ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء قائلا له ألم نربك في منزلنا وأحسنا إليك وأنعمنا عليك مدة من الدهر ؟ ثم قال له : وقتلت الرجل القبطي وفررت منا وجحدت نعمتنا ..

قال موسى : فعلتها قبل أن يُوحى إلي .. ثم قال مجيبا لفرعون عما امتن به من التربية والإحسان إليه .. إن هذه النعمة التي ذكرت من أنك أحسنت إلي وأنا رجل واحد من بني اسرائيل تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله واستعبدتهم في أعمالك وخدمتك ..

قال فرعون لموسى على سبيل الإنكار لرسالته (وما رب العالمين) .. فأجابه موسى رب العالمين خالق هذه السموات والأرض وما بينهما من المخلوقات المتعددة .. وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين ..

قال فرعون لمن حوله من أمرائه ووزرائه على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام .. ألا تستمعون كلامه هذا .. ؟

قال موسى مخاطبا له ولهم : ربكم ورب آبائكم الأولين . الذي خلقكم والذين من قبلكم من الآباء والأجداد والقرون السالفة . فإن كل واحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ولا أبوه ولا أمه ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين ..

ومع هذا لم يستفق فرعون ويعود إلى رشده ، وإنما استمر في طغيانه وعناده وكفره ، وعمد إلى استعمال سلطانه وسطوته ، فقال لموسى لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ..

ولم يهتز موسى لهذا التهديد بل قال لفرعون أو لو جئتك بمعجزة ظاهرة أمام عينيك تثبت لك أنني رسول من رب العالمين ؟!

قال فرعون فأت بها إن كنت من الصادقين ..

ونظر فرعون .. فإذا بموسى عليه السلام يُلقي عصاه فتتحول إلى ثعبان عظيم في الضخامة والهول والمنظر العظيم الباهر ..

فأخذ فرعون رهب شديد وخوف عظيم ..

ثم أدخل موسى يده في جيبه واستخرجها فإذا هي كفلقة القمر تتلألأ نورا يبهر الأبصار فإذا أعادها إلى جيبه واستخرجها رجعت إلى صفتها الأولى ..

ومع هذا لم يرتدع فرعون بل استمر في عناده وأعلن أن هذا كله سحر وقال لموسى نحن نعارضك بمثله ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم لمناظرة السحرة الذين سيأتي بهم فرعون ..

وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة يحضره الناس .. ولهذا قال موعدكم يوم الزينة وكان يوم عيد من أعيادهم ومجتمع لهم وأن يحشر الناس من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس فيكون الحق أظهر وأجلى ..

وطلب موسى أن يكون الموعد نهارا جهرة لأنه على بصيرة من ربه ويقين بأن الله سيظهر كلمته ودينه وإن رغمت أنوف القبط ١

- - -

وجمع فرعون من كان ببلاده من السحرة ، وكانت مصر في ذلك الزمان تعج بهم ..

وحضر فرعون وأمراؤه وأهل بلده عن بكرة أبيهم ..

وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل الذي فيه معارضته لآيات الله وحججه .. وقال لهم ستزون أنني أحمل الحق وأدعو إليه فلا تكذبوا على الله فقد خاب من كذب ولن ينساه الله من عقابه وعذابه ..

واصطف السحرة .. ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم ..

قالوا له : إما أن تلقي قبلنا وإما أن نلقي قبلك ..

فقال لهم موسى عليه السلام : بل القوا أنتم ..

وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي فأودعوها الزئبق وغيره من الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطرابا يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها وإنما تتحرك بسبب ذلك ، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم عندما ألقوا حبالهم وعصيهم وهم يقولون ﴿ **بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ ٢

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٢٨٧

(٢) سورة الشعراء – آية ٤٤

وخـاف موسـى أن يفتن الناس بسحرهم قبل أن يلقي ما في يده .. فأوحى الله إلـيه أن يلقـي بعصـاه ، فلمـا ألقاهـا صـارت حـية ضـخمة ذات عـنق عظيم وشكل هائل مزعج فخافها الناس وتأخروا عن مكانها .. وأقبلت الحية على مـا ألقـاه السـحرة من الحـبال والعصـي فجعلـت تلقفـه واحـدا واحدا فـي أسرع مـا يكون من الحركة والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها ..

إيمان السحرة

أمـا السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيرهم في أمرهم ، واطلعوا على أمر لـم يكـن فـي جلدهم ، ولا يدخـل تحـت صـناعاتهم وأشـغالهم .. فعـند ذلك تحققوا بمـا عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة ولا خيال ولا زور ولا بهتان ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذي ابتعث هذا المؤيد به بالحق ..

وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلـة وأنارها بمـا خلـق فيها من الهدي وأزاح عنها الغشوة .. فأنـابوا إلـى ربهم وخروا ساجدين لرب العالمين وقالوا جهرة للحاضرين آمنا برب هارون وموسى

وأفزع فرعون ما رأى من أمر السحرة فقال لهم : آمنتم له قبل أن آذن لكم ، إننـي سـأعاقبكم عقابـا لـم تعرفوه مـن قبل ، فسـوف أقطـع أيديكم وأرجلكم وسوف أصلبكم في جذوع النخل .

وثبت السحرة علـى إيمـانهم وردوا علـى تهديد فرعون دون خـوف من بطشـه .. إنهم لـن يفضـلوا بشـرا علـى الله وأنهم لـن يعبدوه من دون الله

وأنهم آمنوا بربهم ليغفر لهم خطاياهم وسحرهم .. وقالوا لفرعون إن الذي يأتي ربه يوم القيامة كافرا فإن له جهنم وبئس المصير .. أما الذي يأتيه مؤمنا قد عمل الصالحات فله الجنة ..

وازداد فرعون غضبا وحقدا على الفئة المؤمنة فأمر جنوده بتعذيب وقتل وصلب كل من آمن بموسى وهارون

ونفذ الجنود ما أمر به فرعون ..

وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا وبشرهم بقوله إن العاقبة للمتقين وإن الله سينصرهم وإن لهم الجنة في النهاية ..

- - -

وجلس فرعون يفكر في الأمر .. وانتهى إلى قراره بقتل موسى .. وسكت القوم ولم يتكلموا ..

مؤمن آل فرعون

ولما سكت قوم فرعون انطلق واحد منهم يقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب .. يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ..

وهذا الرجل هو ابن عم فرعون ، وكان يكتم إيمانه عن قومه خوفا منهم على نفسه ، وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليا وهو بعيد ومخالف لسياق الكلام لفظا ومعنى .. ١

ويدعو الرجل المؤمن قومه إلى طريق الرشاد الحق ، وهو متابعة نبي الله موسى وتصديقه فيما جاء به من عند ربه ، ثم زهدهم في الدنيا الفانية المنقضية لا محالة ، ورغبتهم في طلب الثواب عند الله الذي لا يضيع عمل عامل لديه ، القدير الذي ملكوت كل شئ بيده ، الذي يعطي على القليل كثيرا ، ومن عدله لا يجازي على السيئة إلا مثلها ، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار التي من وافاها مؤمنا قد عمل الصالحات فله الدرجات العاليات والخيرات الكثيرة والأرزاق الدائمة التي لا تبيد .. ثم شرع في إبطال ما هم عليه وتخويفهم مما يصيرون إليه ..

كان يدعوهم إلى عبادة رب السموات والأرض الذي يقول للشئ كن فيكون وهم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون ..

ثم بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة ما سوى الله من الأوثان ، وأنها لا تملك من نفع ولا أضرار .. أما الله عز وجل فإنه الخالق الرزاق للأبرار والفجار ، وهو الذي أحيا العباد ويميتهم ويبعثهم فيدخل طائعهم الجنة وعاصيهم النار .. ثم توعدهم إن هم استمروا على العناد بقوله فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ..

---

(١) تفسير الطبري ، ج ٢٣ / ٣٨

ولم يؤمن آل فرعون ولم يستجيبوا لموسى عليه السلام ولا لمؤمن آل فرعون ..

وقد ابتلاهم الله بالسنين وهي أعوام الجدب التي لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع ، وقلة الثمار فلم يرتدعوا ..

بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم .. قلوبهم منكرة نافرة عن الحق .. إذا جاء الشر أسندوه لغيرهم ، وإن رأوا خيرا دعوه لأنفسهم ..

وقالوا لموسى مهما جئتنا من الآيات (وهي الخوارق للعادات) فلن نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك ..

يقول الله تعالى ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين** ﴾

أما الطوفان .. فعن ابن عباس هو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار .. وقد لبستهم الضفادع حتى كانت تسقط في أطعمتهم وأوانيهم حتى إن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع .. وأما الدم فقد مزج ماؤهم كله به فلا يستقون من النيل أو نهرا وبئر إلا وجدوه دما طريا ..

هذا كله ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شئ بالكلية ..

أما عدو الله فرعون فقد استشاط غضبا حين آمنت السحرة كما رأينا وأبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر ..

فتابع الله عليه وعلى آله بالآيات فأخذهم بالسنين وأرسل عليهم الطوفان ثم الجراد ثم القمل ثم الضفادع ثم الدم آيات مفصلات ..

فلما بلغهم ذلك قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل ..

فدعا موسى ربه فكشف عنهم ، فلما لم يفوا له بشئ مما قالوا أرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر حتى إنه كان يأكل مسامير الأبواب من الحديد فتقع دورهم ومساكنهم .. فقالوا مثل ما قالوا ..

وكلما شاهدو آية وعاينوها حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه ، فكلما رُفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه ، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى .. فيقولون ، ويكذبون ، ويعدون ، ولا يوفون ، ويعودون إلى جهلهم العريض الطويل ..

هذا والعظيم الحليم القدير ينذرهم ولا يعجل عليهم ..

ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والاعذار إليهم أخذ عزيز مقتدر فجعلهم عبرة ونكالا ومثلا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين ..

ثم أخبر الله تعالى عن تبجح فرعون بملكه وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها وأخذ يتنقص رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة ..

ويخبر الله تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق وأدعى ملكهم فرعون الباطل ووافقوه عليه وأطاعوه فيه اشتد غضب الرب القدير العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع عليهم فانتقم منهم أشد الانتقام وأغرقه

هو وجنوده في صبيحة واحدة فلم يفلت منهم أحد بل كل قد غرق كما سنرى بعد قليل وكلهم دخلوا النار لأنهم ماتوا على كفرهم ، واتبعوا في هذه الدار لعنة بين العالمين .. ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ويوم القيامة هم من المقبوحين ..

خروج المؤمنين من مصر

أوحى الله إلى موسى أن يترك الأرض الظالمة وأن يأخذ معه المؤمنين إلى فلسطين ليقيموا دولة الإيمان هناك ..

ولما تحرك موسى حيث أمره الله تعالى حشد فرعون جنوده وسار خلف موسى ومن معه من المؤمنين يريد اللحاق بهم وقتلهم ..

ووصل المؤمنون إلى البحر ..

وإنه لموقف عظيم .. أصبح المؤمنون بين البحر والعدو .. فإن تقدموا غرقوا وإن تراجعوا قتلهم فرعون وجنوده ..

قالوا : إنا لمدركون .. ويجيبهم موسى المؤمن الصادق الصدوق (كلا إن معي ربي سيهديني)

ووقف المؤمنون حيارى .. ونظروا إلى موسى ..

وهنا تتدخل العناية الإلهية فيأمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه .. ويضرب موسى البحر بالعصا فينشق البحر بإذن الله وصار الماء من ها هنا وها هنا كالجبلين وصار وسطه يبسا طريق طويل على أرض البحر ويمشي فيه المؤمنين ..

سار المؤمنون فرحين مدهوشين من معجزة الله .. ولكن .. ؟؟!!

نظروا وراءهم فرأوا فرعون وجنوده يتبعوهم أيضا فعاد إليهم القلق والخوف ..

ويخرج موسى وقومه من البحر .. وينجيهم الله .. وكان فرعون وجنوده في منتصف الطريق ..

ويضرب موسى البحر بعصاه فيرجع الماء إلى ما كان عليه ويصرخ فرعون (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل)

ولم ينفعه إيمانه الآن بعدما ارتكب من المعاصي والشرك بالله ..

ويموت فرعون وجنوده ..

وغرق الجنود إلى قاع البحر .. أما فرعون فأبقاه الله طافيا على سطح الماء .. وتقذفه الأمواج إلى الشاطئ ليراه المؤمنون .. فقد كانوا لا يتصورون أن فرعون يموت ..

- - -

ما كان من أمر بني إسرائيل بعد هلاك فرعون

أهلك الله تعالى فرعون وجنوده وأورث بني إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم ولم يبق بمصر سوى العامة ..

وبعد أن عبر موسى والذين آمنوا معه البحر مروا على قوم يعبدون أصناما فسألوا نبيهم موسى أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة ..

فذكرهم بنعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والرسول المرسل إليهم .. وما أحسن الله به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد ، وإهلاكه إياه وهم

ينظرون ، وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملؤه يجمعونه من الأموال وما كانوا يعرشون .. وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له ، لأنه الخالق الرزاق القهار ..

- - -

ولما ترك موسى عليه السلام مصر وواجه بيت المقدس أمر أتباعه بالجهاد ودخول بيت المقدس فأبوا وقالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ..

قال لهم موسى عليه السلام : إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه فإنه سينصركم على عدوكم ..

فصمموا على النكول عن الجهاد وقالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فأذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ..

قال موسى عليه السلام يا رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي هارون فاقض بيني وبينهم .. فعاقبهم الله على نكولهم بالتيهان في الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلا ونهارا وصباحا ومساءا ولا يخرجون منه إلى أربعين سنة ..

دخول بنى إسرائيل التيه وما جرى لهم فيها من الأمور

نزل بنو إسرائيل طور سيناء وصعد موسى عليه السلام الجبل فكلمه الله تعالى وأمره أن يُذكر بني إسرائيل بما أنعم به عليهم من إنجائه إياهم من فرعون وقومه وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم ، فإذا كان اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل

ولا يقتربن أحد منهم إليه .. فمن دنا منه قتل ماداموا يسمعون صوت البوق فإذا سكن فقد حلّ لهم أن يرتقوه .. فسمع بنو إسرائيل ذلك وأطاعوا واغتسلوا وتطيبوا ..

فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة وفيها أصوات وبروق ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعا شديدا وخرجوا فقاموا في سفح الجبل وغشى الجبل دخان عظيم في وسطه عمود نور زلزل الجبل كله زلزلة شديدة ، واستمر صوت البوق واشتد ، وموسى عليه السلام فوق الجبل يناجي ربه ..

وقد أنعم الله تعالى على بنى إسرائيل فيسر لهم المن والسلوى وهما طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعي لهم فيه .. فينزل الله المن باكرا ويرسل عليهم طير السلوى عشيا ، وأنبع الماء لهم بضرب موسى عليه السلام الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين ينفجر منها ماء زلالا فيشربون منه ويسقون دوابهم وظلل عليهم الغمام من الحر .. وهذه نعم من الله عظيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها .. ثم ضجر كثير منهم منها وتبرموا بها وطلبوا استبدالها بما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها .. فقال لهم موسى عليه السلام إن هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التي أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار ، موجود بها ، وإذا هبطتم إليها تجدون بها ما تشتهون من المآكل الدنية ..

وتدل تصرفاتهم على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه فحل عليهم غضب من الله .. أما من أناب وتاب فقد غفر الله له .. إن الله غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ..

طلب موسى رؤية ربه

كلم الله موسى عليه السلام .. وهذا مقام رفيع ومنصب شريف ومنزل منيف .. ولما أعطي هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية وسمع الخطاب سأل ربه رفع الحجاب فقال للعظيم الذي لا تدركه الأبصار (رب أرني أنظر إليك قال لن تراني) ثم بين الله تعالى لموسى عليه السلام أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى لأن الجبل الذي هو أقوى وأشد ثباتا من الإنسان لا يثبت عند التجلي من الرحمن ، ولهذا قال (ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني) ..

ولما رأى موسى ما حلّ بالجبل خرّ مغشيا عليه .. ولما أفاق قال سبحانك تنزيه وإجلال أن يرى الله بعظمته أحد ، وتاب إلى الله وقال بإنه لن يسأل الله بعد هذه الرؤية وأنه أول المؤمنين وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا تخيروني من بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أأفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور " ١

---

(١) البخاري ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ الخصومات رقم (١)

وقولــه صلى الله عليه وسلم : " فـأكون أول من يفيق فأجد موسى آخذا بقائمـة العرش فـلا أدري أأفـاق قبلـي أم جـوزي بصـعقة الطـور " دليل على أن هذا الصعق الذي يحصل للخلائق يوم القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضـاء بين عباده ، فيصـعقون من شدة الهيبة والعظمـة فيكون أولهم إفاقـة محمد خـاتم الأنبياء ومصـطفى رب العالمين والسـلام علـى سـائر الأنبياء فيجد موسى عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش قال الصـادق المصـدوق (فـلا أدري أصـعق فأفـاق قبلـي) ؟ أي وكانـت صعقته خفيفة ، لأنـه قد نالـه بهذا السبب فـي الدنيا صـعق (أو جوزي بصعقة الطور) يعني لم يصعق بالكلية ..

وهذا فيه شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثية وقوله تعالى (قـال يـا موسـى إنـي اصـطفيتك علـى النـاس برسـالاتي وبكلامي) أي في ذلك الزمان ، لا ما قبله – لأن إبراهيم الخليل أفضل منه – ولا ما بعده – لأن محمد صلى الله عليه وسلم أفضل منهما – كما ظهر شرفة ليلة الإسراء والمعراج على جميع المرسلين والأنبياء ، كما ثبت أنه قال (سأقوم مقاما يرغب إليّ الخلق حتى إبراهيم) ١

وأنـزل الله تعـالى علـى موسـى علـيه السـلام الـتوراة وقـال الله تعـالى لموسـى يـا موسـى إنـي اصـطفيتك علـى النـاس فخـذ مـا آتيـتك وكـن مـن الشاكرين .. وشكر موسى ربه على نعمة الرسالة والكتاب ..

---

(١) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص ٣٧٤ – ٣٧٥

عبادة بني إسرائيل العجل في غيبة موسى عليه السلام

لما ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجي ربه .. عمد رجل من بني إسرائيل يقال له السامري فأخذ ما كانوا استعاروه من الحلي فصاغ منه عجلا جسدا له خوار عبده بعضهم ..

ولما رجع موسى عليه السلام إلى قومه ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها .. وأقبل عليهم وعنفهم ووبخهم فاعتذروا له ..

ثم أقبل على أخيه هارون قائلا له لما رأيت ما صنعوا لمَ لم تتبعني فتخبرني بما فعلوا .. فقال له هارون إني خشيت أن أتركهم وقد استخلفتني فيهم ..

وشهد الله لهارون أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوه ..

وطلب موسى عليه السلام من ربه أن يغفر له ولأخيه فغفر لهما ..

ثم أقبل موسى على السامري وسأله ما حملك على ما صنعت فقال السامري : رأيت جبرائيل وهو يركب فرسا فقبضت قبضة من أثر فرس جبريل ، فلما ألقيتها في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان .. ثم عمد موسى إلى هذا العجل فحرقه ثم ذراه في البحر وأمر بني إسرائيل فشربوا ، فمن كان من عابديه علق في شفاههم من ذلك الرماد ما يدل عليه وقيل بل اصفرت ألوانهم [1]

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٢٩٨ - ٣٠٠

ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده في قبوله توبة من تاب إليه بتوبته عليه ..

لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل .. فيقال إنهم أصبحوا يوما وقد أخذ من لم يعبد العجل في أيديهم السيوف وألقى الله عليهم ضبابا حتى لا يعرف القريب قريبه ثم مالوا على عابديه فقتلوهم .. فيقال إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفا [1]

- - -

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قال موسى : يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به .. قال : قل يا موسى لا إله إلا الله ، قال : يا رب كل عبادك يقول هذا .. قال رب العزة قل لا إله إلا الله قال : إنما أريد شيئا تخصني به ، قال : يا موسى لو أن أهل السموات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله

ورُوي عن ابن عباس أن بني إسرائيل قالوا لموسى : هل ينام ربك ؟ قال : اتقوا الله فناداه ربه عز وجل : يا موسى .. سألوك هل ينام ربك فخذ زُجاجتين في يديك فقم الليل .. ففعل موسى .. فلما ذهب من الليل ثلثه نعس موسى فوقع لركبتيه ، ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا .. فقال يا موسى : لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكن كما هلكت الزجاجتان في يديك .. قال : وأنزل الله على رسوله آية الكرسي ..

---

(١) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص ٣٨٠ – ٣٨١

قصة بقرة بني إسرائيل

كان رجل من بني إسرائيل عقيما لا يوجد له أبناء وله مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم فلما أصبح الناس اختصموا فيه ، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ..

فقال رجل منهم من ذوي الرأي علام تختصمون ولا تأتون نبي الله موسى ..

فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك فقال (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .. قالوا : أتتخذنا هزوا) يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول لنا هذا سخرية منا .. قال لهم : أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحي إلي ، وهذا هو الذي أجابني به ربي حين سألته عما سألتموني أن أسأله فيه ..

قال ابن عباس وغير واحد : فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ، ولكن شددوا فشدد الله عليهم [1]

وهذا بيان لضرب من مساوئ بني إسرائيل في تعنتهم وعدم مسارعتهم لامتثال الأوامر وجفائهم في مخاطبة موسى عليه السلام ..

فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ، ثم عن سنها ، فأجيبوا بما عز وجوده عليهم ..

ويقال أنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم فطلبوها منه فأبى عليهم إلا بوزنها ذهبا ، فاشتروها بوزنها ذهبا ..

---

(١) تفسير القرطبي ، ج ١ ، ص ٢٦٧

وأمرهم نبي الله موسى بذبحها .. ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها .. فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام .. فسأله نبي الله موسى .. من قتلك ؟ قال : قتلني ابن أخي .. ثم عاد ميتا كما كان .. [1]

قصة موسى والخضر

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا .. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه : إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك.."

ورحل موسى إلى الخضر في طلب ما عنده من العلم اللدني فسلم عليه ورد الخضر السلام وسأله من أنت ؟

قال موسى : أنا موسى .. أتيتك لتعلمني ما عُلمت رشدا ..

قال الخضر : يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه .. وإنك لن تستطيع معي صبرا ..

قال موسى : ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ..

فقال له الخضر : فإن اتبعتني فلا تسألني عن شئ حتى أحدث لك منه ذكرا ، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير أجر ، فلما ركبوا في السفينة فوجئ موسى بالخضر يخلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ..

---

(١) تفسير الطبري ، ج ١ ، ص ٢٨٥

قال له موسى : قوم حملونا بغير أجر .. عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها .. لقد فعلت شيئا عجيبا ..

قال الخضر : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ..

قال موسى : لا تؤاخذني بما نسيت ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في الماء نقرة فقال الخضر لموسى : ما علمي وعلمك وعلم الخلائق من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من هذا البحر " [1]

ثم خرجا من السفينة ، وبينما هما يمشيان على الساحل أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فقتله ..

قال له موسى : أقتلت نفسا ذكية بغير نفس لقد فعلت شيئا فظيعا جدا

قال الخضر : ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا

قال موسى : إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبني ، قد بلغت من لدني عذرا ..

ثم دخلا قرية وقد أصابهما الجوع فطلبا من أهلها طعاما فلم يطعموهم ووجد جدارا يوشك أن يتهدم فأصلحه وبناه .. دون أجر .. فقال موسى لو شئت لأخذت عليه أجرا ..

قال الخضر : هذا فراق بيني وبينك .. سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ..

---

(١) صحيح البخاري ، ج ٦ ، ص ١٦٩ ــ ١٧٠

أما السفينة فهي لمساكين وكان هناك ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ، وإن رأى فيها عيبا تركها .. لذلك خلعت منها خشبة صغيرة حتى لا يأخذها الملك منهم ..

وأما الغلام فقتلته لأنه سيصبح شقيا ، وأراد ربك أن يبدل أبويه الصالحين خيرا منه ..

وأما الجدار فهو لطفلين يتيمين وكان تحته كنز لهما وأراد ربك أن يكبرا ويستخرجا هذا الكنز بيديهما .. وكل ما فعلته من الأمور الثلاثة لم يكن إلا بأمر الله ووحيه ..

وهذا تأويل ما لم تستطع عليه صبرا

وعندها علم موسى الحكمة من لقائه بالخضر .. وأدرك أن علم الله واسع لا يحيط به أحد من خلقه .. ومهما وصل الإنسان إلى درجة كبيرة من العلم فإن هناك من هو أعلم منه .. وأن هناك الكثير من المعلومات يجهلها ولا يدركها ..

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليت أخي موسى صبر على الخضر .. فلو صبر لتعلمنا من الخضر الكثير "

الخضر الذي تعلم علما من لدنه .. علمه الله وآتاه رحمة من عنده ..

يقول الله تعالى في لقاء موسى بالخضر **﴿ فوجد عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾** [1]

قال القرطبي في تفسير هذه الآية :

---

(١) سورة الكهف ـ آية ٦٥

إن العبد هو الخضر عليه السلام وسمي بذلك لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله وروى الترمذي عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء " [1]

والخضر نبي عند الجمهور ، وقيل هو عبد صالح ..

قال ابن عباس : ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه .. وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه ..

فالخضر إن كان نبيا أو وليا فقد دخل في هذا الميثاق .. فلو كان حيا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه وينصره ..

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه على رأس مائة سنة لا يبقى ممن على ظهر الأرض أحد " رواخ البخاري ومسلم

قالوا : فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع فلا إشكال وإن كان قد أدرك زمانه ، فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعد مائة سنة ، فيكون الآن مفقودا لا موجودا لأنه داخل في هذا العموم ، والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله [2]

---

(١) القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ، ج ١١

(٢) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص ٤٦١ – ٤٦٤ بتصرف

من فضائل موسى عليه السلام

قال الله تعالى ﴿ **وأذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا . وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا** ﴾ [1]

وقال تعالى ﴿ **قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين** ﴾ [2]

وقد رُوي أنه لما فرض على محمد صلى الله عليه وسلم وأمته خمسين صلاة في اليوم والليلة مرّ بموسى فقال له : ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك فإني قد عالجت بني إسرائيل قبلك أشد المعالجة ، وإن أمتك أضعف أسماعا وأبصارا وأفئدة ، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف الله عنه في كل مرة حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة .. وقال الله تعالى هي خمس وهي خمسون ، أي بالمضاعفة ..

وقد رَوى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

" عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي معه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فقلت : هذه أمتي ؟ فقيل : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الأفق ، فإذا سواد

---

(١) سورة مريم – آية ٥١ – ٥٣

(٢) سورة الأعراف – آية ١٤٤

عظيم ، ثم قيل انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم ، فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ..

ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل ، فخاض القوم في ذلك فقالوا : من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟

فقال بعضهم : لعلهم الذين صحبوا النبس صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا قط ، وذكروا أشياء ..

فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه ؟ " فأخبروه بمقالتهم ..

فقال صلى الله عليه وسلم : " هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون " .. فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " أنت منهم " ثم قام آخر فقال : أنا منهم يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " سبقك بها عكاشة " [1]

وقد ذكر الله تعالى موسى عليه السلام في القرآن كثيرا وأثنى عليه ثناء عظيما .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب (الطب) ٥٧٠٥ – ومسلم (إيمان) ٣٧١ و ٣٧٢ والترمذي (قيامه) – ومسند أحمد ١ / ٢٧١ و ٤٠١ و ٤٠٣ و ٤٤٣ و ٤٥٤

وبالجملة فشريعة موسى عليه السلام كانت شريعة عظيمة وأمته كانت أمة كثيرة ، ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وملوك وأمراء وسادات وكبراء ..

وقد ذكرت قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة في سورة الأعراف ثم في سورة طه ثم في سورة الشعراء .. فما فائدة تكرارها وتكرار غيرها من القصص ؟

قلنا .. فائدته تأكيد التحدي وإظهار الإعجاز ، كما أن المبارز إذا خرج من الصف قال : نَزَال نَزَال ، هل من مبارز ، هل من مبارز مكررا ذلك

يقال : ولهذا سمى الله تعالى القرآن مثاني لأنه تُثّيت فيه الأخبار والقصص ..

الثاني : أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان بعضهم حاضرين وبعضهم غائبين في الغزوات وكانوا يحبون حضور مهبط الوحي ، وكانوا إذا رجعوا من غزوهم أكرمهم الله تعالى في بعض الأوقات بإعادة الوحي تشريفا لهم وتفضيلا ..

فإن قيل .. كيف كرر الله تعالى ذكر قصة موسى عليه السلام أكثر من قصص غيره من الأنبياء ..

قلنا .. لأن أحواله كانت أشبه بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم من أحوال غيره منهم ، في إقامته الحجج وإظهاره المعجزات لأهل مصر

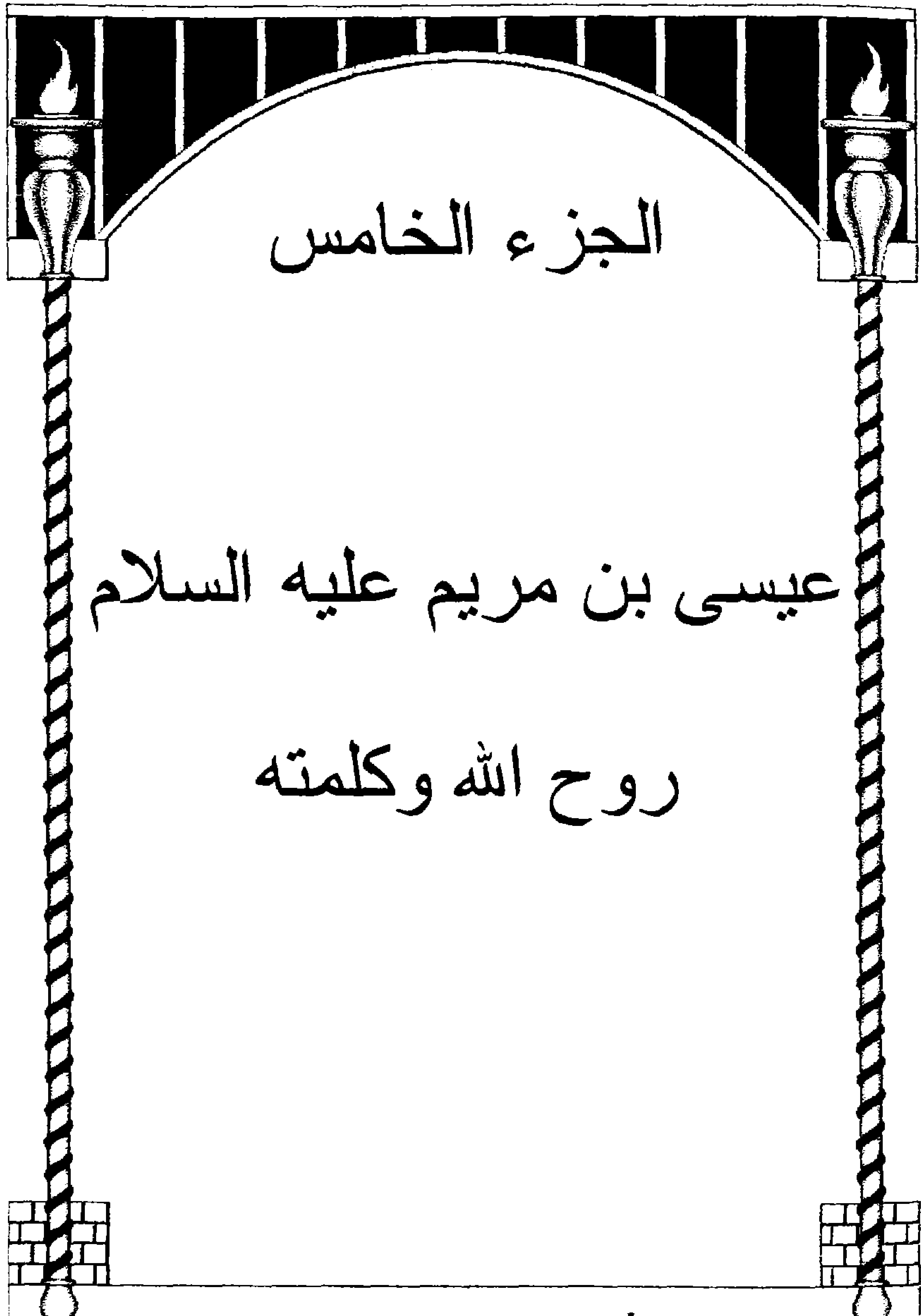
وإصرارهم على تكذيبه والجفاء عليه كما كان حال النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل مكة [1]

وفاة موسى عليه السلام

توفي موسى بعد أخيه هارون بسنتين ، وعمره مائة وعشرون سنة ..
وقد رُوي أن ملك الموت كان يأتي الناس عيانا فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه ، فأتى ربه فقال : يا رب عبدك موسى فقأ عيني ولولا كرامته عليك لعتبت عليه ، فرد الله لملك الموت عينه وقال له : اذهب إلى عبدي وقل له فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة فأتاه فقال له : فقال موسى ; ما بعد هذا .. قال : الموت .. قال موسى : فالآن ..
فشمه ملك الموت شمة فقبض روحه (رواه الإمام أحمد)
وبعد ذلك أصبح ملك الموت يأتي الناس خفية ..

---

(١) الرازي الحنفي ، غرائب آي التنزيل ، ج ٤ ، ص ٣٤٤


الجزء الخامس
عيسى بن مريم عليه السلام
روح الله وكلمته

ذكـر الله فضـل آل عمـران .. هـذا البيـت الطاهـر الطيـب .. والمـراد بعمران والد مريم العذراء الطاهرة .. البتول

وقال القاسم بن عساكر مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود ابن اخنز بن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن ايبود بن زريابيل بن شالتان بن يوحينا بن برشا بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن احاز بن موثام بن غزريا بن يورام بن يوشا فاط بن إيشا بن إيبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عليه السلام .

ولا خلاف إنها من سلالة داود عليه السلام ، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه .. أما أمها فهي حنة بنت فاقود ابن قبيل من العابدات .. وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم (أشياع) في قول الجمهور وقيل زوج خالتها [1]

وقد نذرت أم مريم إن حملت أن تهب ولدها لخدمة بيت المقدس ولما وضعتها قالت (رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت) وليس الذكر كالأنثى في خدمة بيت المقدس .. وإني سميتها مريم .. (وإني أعيذها بك من الشيطان الرجيم) ..

وقد استجاب الله لها .. كما تقبل نذرها ..

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إلا مريم وابنها)

وقد عصم الله مريم وابنها عيسى من الشيطان بفضل دعاء أم مريم ..

---

(١) تفسير الطبري ، ج ٣ ، ص ١٥٧

ذكر كثير من المفسرين أن أم مريم حين وضعتها خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد المقيمين به .. فتنازعوا أيهم يكفلها .. واقترعوا فيما بينهم فخرجت قرعة زكريا غالبة عليهم ..

وكفلها زكريا .. فاتخذ لها مكانا شريفا في المسجد لا يدخله سواها ، فكانت تعبد الله فيه ليل نهار .. وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت في نوبتها ..

وكان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقا غريبا في غير أوانه .. فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها (أنى لك هذا ؟) فتقول : رزق رزقنيه الله (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)

- - -

وقد طهرها الله واصطفاها على نساء عالمي زمانها ..

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رسول الله " [1]

وقال صلى الله عليه وسلم : " أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون" [2]

---

(١) السيوطي في الجامع الصغير – حديث رقم ٤٠٨٨
(٢) السيوطي في الجامع الصغير – حديث رقم ١٣١٧

ميلاد عيسى عليه السلام

ذكرنا أن زكريا عليه السلام كفل مريم واتخذ لها محرابا لا يدخله أحد عليها سواه .. وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام .. وقد بشرتها الملائكة باصطفاء الله لها وبأنه سيهب لها ولدا زكيا يكون نبيا طاهرا مُكرما مؤيدا بالمعجزات .. فتعجبت من وجود ولد لها من غير والد لأنها لا زوج لها ولا هي ممن تتزوج ، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون .. فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله ..

وذات يوم خرجت لبعض شئونها وانفردت بنفسها شرقي المسجد إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام فتمثل لها في صورة إنسان ، فلما رأته استعاذت بالله ..

فخاطبها جبريل عليه السلام قائلا إنه ملك بعثه الله إليها ليهب لها غلاما زكيا ..

قالت : كيف يكون لي غلام ولست ذات زوج وما أنا ممن يفعل الفاحشة .. فأجابها الملك بأن الله يصنع ما أراد ويخلق ما يشاء من بشر أو غير بشر (إذا قضى أمرا فإنه يقول له كن فيكون)

وجاء موعد الوضع .. ووضعت مريم طفلها .. ماذا قالت ؟؟ (قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) .. لماذا ؟؟ لأنها خافت أن يتهمها قومها بفعل الفاحشة .. وأنهم لن يصدقوها حين تأتيهم بغلام

على يدها مع أنها كانت من العابدات الناسكات المعتكفات في المسجد ومن بيت النبوة .. فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو لم تخلق بالكلية ..

وهنا تحدث المعجزة .. يخاطبها طفلها الذي وضعته منذ قليل .. فيطلب منها ألا تحزن ويشير إليها بأن الله قد جعل تحتها نهرا ، وأن تهز جذع النخلة فيتساقط عليها رطبا جنيا ، وقال (فكلي واشربي وقري عينا)

ولما رآها قومها تحمل ولدها قالوا لها : يا مريم لقد فعلت أمرا منكرا فأشارت إليه .. أي خاطبوه وكلموه .. فقالوا لها : كيف تحيلينا في الجواب على رضيع في مهده لا يعقل الخطاب .. أتهزئين منا وتستخفين بعقولنا .. وهنا تتكرر المعجزة فينطق عيسى في مهده ..

(قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا . والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ..)

وهكذا اعترف عيسى عليه السلام لربه تعالى بالعبودية وبأنه عبده ورسوله وابن أمته وأنه برا بوالدته التي برأها الله وأخبر عنها أنها صِدّيقة واتخذ ولدها نبيا مرسلا وأحد أولي العزم الخمسة .. ولهذا قال وجعلني مباركا أين ما كنت

وقد خصه الله تعالى بالكلام في مهده آية لنبوته وتعريفا للعباد بمواقع قدرته ..

نشأة عيسى عليه السلام

ولد عيسى بن مريم ببيت لحم قريبا من بيت المقدس ..

رُوي عن أبي هريرة أنه قال : أن عيسى بن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل فمجد الله تمجيدا لم تسمع الآذان بمثله ، لم يدع شمسا ولا قمرا ولا جبلا ولا نهرا ولا عينا إلا ذكره في تمجيده فقال :

اللهم أنت القريب في علوك ، المتعال في دنوك ، الرفيع على كل شئ من خلقك ، أنت الذي خلقت سبعا في الهواء بكلماتك مستويات طباقا أجَبْن وَهُنّ دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك ، فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك وجعلت فيهن نورا على سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار ، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد ، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك ، وجعلت فيهن مصابيح يُهتدى بهن في الظلام الحيران ، فتباركت اللهم في مفطور سماواتك وفيما دحوت من أرضك دحوتها على الماء فسمكتها على تيار الموج الغامر ، فأذللتها إذلال التظاهر فذل لطاعتك صعبها واستحيا لأمرك أمرها ، وخضعت لعزتك أمواجها ، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار ، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار ، ثم أخرجت منها الأشجار والثمار ، ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدها أوتادا على ظهر الماء ، فأطاعت أطوادها وجلمودها ..

فتباركت اللهم ! فمن يبلغ بنعته نعتك ، أم من يبلغ بصفته صفتك ؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضي بالحق وأنت خير الفاصلين ، لا إله إلا أنت سبحانك .. أمرت أن نستغفرك من كل ذنب ، لا إله إلا أنت سبحانك ، سترت السموات عن الناس ، لا إله إلا أنت سبحانك ، إنما يخشاك من عبادك الأكياس ، نشهد بأنك لست بإله استحدثناك ، ولا رب يبيد ذكره ، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذرك ، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك ، نشهد أنك أحد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفوا أحد .

وكان عبد الله بن عمر يقول :

كان عيسى بن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم : تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك ؟ فيقول نعم .. فيقول : خبأت لك كذا وكذا .. فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها أطعميني ما خبأت لي ، فتقول له : من أخبرك ؟ فيقول : عيسى بن مريم ..

فقالوا : والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم ، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم ، فسمع ضوضاءهم في بيت فسأل عنهم فقالوا : إنما هؤلاء قردة وخنازير .. فقال : اللهم كذلك .. فكانوا كذلك ..

ورُوي عن ابن عباس أنه قال : وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاما من الله ففشا ذلك في اليهود ..

وترعرع عيسى .. فهمت به إسرائيل .. فخافت أمه عليه ، فأوحى الله إليها أن تنطلق به إلى أرض مصر ..

فاحتملته وذهبت به إلى مصر ، وأقامت بها حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة ، وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره فذكر منها أن الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالا من داره وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذها .. وعز ذلك على مريم وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم الأمر

فلما رأى عيسى عليه السلام ذلك عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه ..

فقال للأعمى : احمل هذا المقعد وانهض به فقال : إني لا أستطيع ذلك فقال : بلى .. كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار .. فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال .. فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغير جدا ..

ومن ذلك أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده ، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شرابا – يعني خمرا – كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان لم يجد في جراره شيئا فشق ذلك عليه فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ، ويمرر يده على أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شرابا من خيار

الشراب .. فتعجب الناس من ذلك وعظموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالا جزيلا فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس [1]

نزول الوحي على عيسى عليه السلام

أوحى الله عز وجل إلى عيسى بن مريم : يا عيسى جد في أمري ولا تهن ، واسمع وأطع يا ابن الطاهرة البكر البتول ، إني خلقتك من غير فحل آية للعالمين .. إياي فاعبد ، وعليّ فتوكل ، خذ الكتاب بقوة ، بلغ من بين يديك أني أنا الحق الحيّ القائم الذي لا أزول ..

وقد رُوي عن ابن عباس وسَلمان الفارسي أنه لما بُعث عيسى بن مريم وجاءهم بالبينات جعل المنافقون والكافرون من بني إسرائيل يعجبون منه ويستهزئون به فيقولون : ما أكل فلان البارحة وما ادخر في منزله فيخبرهم فيزداد المؤمنون إيمانا والكافرون والمنافقون شكا وكفرانا ..

ولم يكن لعيسى منزل يأوى إليه إنما كان يسيح في الأرض ليس له قرار ولا موضع يعرف به ، وقيل إنه سُمي المسيح لمسحه الأرض وسياحته فيها وفراره بدينه من الفتن في ذلك الزمان

- - -

مَرّ عيسى عليه السلام ذات يوم على المقابر فوجد امرأة تبكي عند قبر فسألها عن حالها فقالت : ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها ، وإني عاهدت ربي أن لا أبرح عن موضعي هذا حتى أذوق ما ذاقت من

---

(١) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص ٥٨٥ ــ ٥٨٨

الموت أو يحييها الله لي فأنظر إليها .. فقال لها عيسى : أرأيت إن نظرت إليها أراجعة أنت ؟ قالت : نعم

قالوا : فصلى عيسى ركعتين ثم جاء فجلس عند القبر فنادى : يا فلانة قومي بإذن الله الرحمن فاخرجي

قال : فتحرك القبر ، ثم نادى الثانية فتصدع القبر بإذن الله ثم نادى الثالثة فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب ، فقال لها عيسى عليه السلام : ما أبطأك عني ؟ فقالت : لما جاءتني الصيحة الأولى بعث الله لي ملكا فركب خلقي ثم جائتني الصيحة الثانية فرجع إلي روحي ، ثم جائتني الصيحة الثالثة فخفت أنها صيحة القيامة فشاب رأسي وحاجباي وأشفار عيني من مخافة القيامة ، ثم أقبلت على أمها فقالت : يا أماه ، ما حملك على أن أذوق كرب الموت مرتين ؟ يا أماه .. اصبري واحتسبي فلا حاجة لي في الدنيا .. ثم خاطبت عيسى عليه السلام :
يا روح الله وكلمته .. سل ربي أن يردني إلى الآخرة وأن يُهَوّن علي كرب الموت .. فدعا ربه فقبضها إليه واستوت عليها الأرض ..

- - -

ولما أقام عيسى عليه السلام الحجج والبراهين على صدق دعوته استمر أكثر قومه على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم ، وآمنت به طائفة صالحة فكانوا له أنصارا وأعوانا قاموا بمتابعته ونصرته وهم الحواريون

وعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل ، وقد قام فيهم خطيبا فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق أحمد ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم الذي هو من سلالة إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام ..

وقد سُئل النبي محمد صلى الله عليه وسلم من أصحابه :

يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك ..

قال صلى الله عليه وسلم : " أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام "

وقد رُوي أن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أنا أولى الناس بابن مريم والأنبياء أولاد علات (ضرائر) ليس بيني وبينه نبي [1]

وقال صلى الله عليه وسلم : " من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل " [2]

---

(١) البخاري ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ ، كتاب البر

(٢) البخاري ، ج ٥ ، ص ١٥٥ ومسلم ، ج ٢ ، ص ٣٠١ ، كتاب القدر

ذكر خبر المائدة

أمر عيسى عليه السلام الحواريين بصيام ثلاثين يوما ..

فلما أتموها سألوا عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبهم وتكون لهم عيدا يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم .. فوعظهم عيسى في ذلك وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ، ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل ذلك من ربه عز وجل .

فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى طلبهم ..

فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول : باسم الله خير الرازقين .. ثم أمرهم بالأكل منها فقالوا لا نأكل حتى تأكل .. فقال : إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها ، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء ، فأمر الفقراء والمرضى فأكلوا منها فبرأ الله كل من به عاهة أو مرض مزمن ، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك ثم قيل إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها ..

ثم كانت تنزل يوما بعد يوم .. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء دون الأغنياء فشق ذلك على كثير من الناس .. وتكلم منافقوهم في ذلك فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا في ذلك إلى خنازير

وقد رُوي عن عمار بن ياسر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نزلت المائدة من السماء خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يدفعوا لغد ، فخانوا وادخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير " [١]

من أقوال السيد المسيح

- اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيري ، وأصبحت مرتهنا بعملي ، فلا فقير أفقر مني اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تؤبى صديقي ، ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا تسلط على من لا يرحمني ..

- اعبروا الدنيا ولا تعمروها ..

- حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والنظر يزرع في القلب الشهوة

- يا ابن آدم الضعيف .. اتق الله حيث ما كنت ، وكن في الدنيا ضيفا ، واتخذ من المساجد بيتا ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر وقلبك التفكر ، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة ..

- كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر دارا فلا يتخذ الدنيا قرارا ..

---

(١) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص ٦٠١ - ٦٠٣

- لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء ..

- طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه ..

- طوبى لمن بكى من ذكر خطيئة وحفظ لسانه ووسعه بيته ..

- طوبى لعين نامت ولم تحدث نفسها بالمعصية .. وانتبهت إلى غير إثم

- لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم ، فإن القلب القاس بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد ، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية ..

- تعجبت من ثلاث أناس : طالب الدنيا والموت يطلبه .. وباني القصور والقبور منزله .. ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه !!

- يا ابن آدم لا بالكثير تشبع ولا بالقليل تقنع .. تجمع مالك لمن لا يحمدك ..

- من تعلم وعلم وعمل دُعي عظيما في ملكوت السماء

- يا معشر الحواريين .. لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، والأمور ثلاثة : أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله تعالى

- وقال أبو عمر الضرير : بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دما ..

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء

يقول الله تعالى ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ [1]

فأخبر الله تعالى أنه رفعه إلى السماء وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى أحد الملوك الكفرة في ذلك الزمان

قال الحسن البصري ومحمد بن اسحاق .. كان اسمه داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه ، فحصروه في دار ببيت المقدس وذلك عشية الجمعة ليلة السبت ، فلما حان وقت دخولهم ألقي شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورُفع عيسى من ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون ودخل الشُرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له ، وسلم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب وضلوا بسبب ذلك ضلالا مبينا كثيرا فاحشا بعيدا ..

وبقيت مريم بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة ..

ورُوى عن سعيد بن المسيب أنه قال .. رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة [2]

---

(١) سورة آل عمران – آية ٥٤ ، ٥٥

(٢) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، ص ٦١٢ – ٦١٧ بتصرف



الجزء السادس

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيتا فأحسنها - وأجملها وأكملها - إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان فيقولون ألا وضعت ها هنا لبنة فيتم بنيانك ، فكنت أنا اللبنة " رواه البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (الفضائل)

- - -

ويقول صلى الله عليه وسلم : " أنا أول الناس خروجا إذا بُعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا يئسوا ، لواء الحمد بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر " رواه الترمذي (٣٦١٠)

- - -

ويقول صلى الله عليه وسلم : " بينما أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت جبريل وميكائيل في المنام ، فقال جبريل لميكائيل زنه يا ميكائيل .. يقول الرسول : والذي بعثني بالحق نبيا ، وزنني ميكائيل بعشرة رجال فرجحت بهم ، قال جبريل : زنه بمائة رجل فوزنني بمائة رجل فرجحت بهم .. قال جبريل : زنه بألف رجل فوزنني بألف رجل فرجحت بهم .. قال ميكائيل : لو وزناه بأهل الأرض جميعا لرجح بهم إنه محمد "

- - -

حياة الرسول صلى الله عليه وسلم حديقة عطرة فيحاء ممتلئة بالزهور والرياحين يفوح منها شذى النبل والطهارة والوفاء والصدق والتواضع

والعفو عند المقدرة .. وغير ذلك من صفات الكمال الإنساني .. إنها أخلاق النبي وسجاياه ترتفع به إلى عنان السماء .. فلا يدرك أحد أيها أعلى مكانا .. تتلقفها القلوب فلا تدري أيها أعظم أثرا ..

في هذا الجزء من كتابنا أولو العزم من الرسل نتناول بعض إنسانيات الرسول الكريم وبعض مواقفه الإيمانية الخالدة ..

فمن أين نبدأ ونحن في رحاب الرسول الأعظم ..

إننا عندما نستضيف السيرة العطرة نحار كثيرا .. كيف نبدأ .. ما أصعب البداية .. إنها مائدة حافلة وعامرة بزاد العقول والوجدان ..

ما أصعب البداية .. كيف لي في ضعفي الإنساني وقلة حيلتي أن أتحدث عن النبي الأكرم .. البحر الأعظم والنهر المتدفق ..

كيف لأي إنسان أن يقترب من كماله الإنساني .. ماذا يخط القلم .. وكيف يستطيع البيان أن يعبر عن حب كبير يعيش في أعماق الوجدان وعن محبوب يجري حبه في عروقي مجرى الدم والماء ..

قطرة الماء لا تعبر عن عظمة النهر .. وذرة الرمل لا تعطي انطباعا عن شموخ الجبل .. والنفس الشاردة الحائرة في صحراء الحياة تتكسر ريشتها فتعجز عن رسم ملامح العظمة والسمو في بعض صفات القائد الذي صنع أمة ..

وهذه السطور ما هي إلا ومضات سريعة لا ترسم الصورة الكاملة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنها لمحة وفاء وحب نحو النبي الصادق الأمين الطاهر التقي النقي ..

مضت مئات السنين والأحداث التي قادها الرسول والآثار التي تركها لا تزال قائمة .. فالأمة التي صنعها ، والصحابة والتابعون وتابعوهم إلى يوم الدين مازالوا يحملون أمانة تبليغ الرسالة بتوفيق الله ورعايته .

وصدق رسول الله إذ يقول : " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم "

حديث الشفاعة

جاء في الصحيحين (البخاري ومسلم)

يقول صلى الله عليه وسلم : " إذا كان يوم القيامة ماج الناس في بعض فيأتون آدم فيقولون اشفع لنا إلى ربك ، فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن ، فيأتون إبراهيم فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيأتون موسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته ، فيأتون عيسى فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد فيأتوني فأقول : أنا لها ، فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويُلهمني الله محامِدَ أحمده بها ، فأحمده بتلك المحامد وأخرّ له ساجدا فيقول : يا محمد ارفع رأسك وقل يُسمع لك ، وسَلْ تُعط واشفع تُشفع فأقول : يا رب أمتي أمتي فيقول : انطلق فأخرج من النار من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجدا فيقول : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسَل تُعط واشفع تُشفع فأقول : يا رب أمتي أمتي فيقول : انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان ، فأنطلق فأفعل ، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجدا فيقول : يا محمد

ارفع رأسك وقل يسمع لك وسَل تُعط واشفع تُشفع فأقول : يا رب أمتي أمتي فيقول : انطلق فأخرج منها من كان في قلبه أدنى مثقال حبّة خردل من إيمان فأخرجه منها فأنطلق فأفعل ، ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد ثم أخرّ له ساجدا فيقول : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسَل تُعط واشفع تُشفع فأقول : يا رب ائذن لي فيمن قال : لا إله إلا الله ، فيقول : وعزّتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله "

- - -

والآن تعالوا نستضيف السيرة الطيبة العطرة ..

مولد الرسول صلى الله عليه وسلم

تسامعت بيوت مكة النبأ السعيد .. مولد الرسول الكريم .. فتوافدت عقائل قريش لتهنئة آمنة ويصغين إلى ما سمعت من بشرى ..

وكان مولده صلى الله عليه وسلم الاثنين في شهر ربيع الأول عام الفيل وكان هذا التاريخ يوافق في التاريخ الميلادي أبريل سنة ٥٧١ م ..

وكثر الحديث عما ملأ الجزيرة من أقوال عن نبي منتظر تقارب زمانه يتحدث الأحبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب ..

ومضت مدة قصيرة بعد يوم الفيل حتى ذاعت بشرى المولد النبوي

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسم وثناء

الروح والملأ الملائك حوله   للدين والدنيا به بشراء

والعرش يزهو والحظيرة تزدهي   والمنتهى والسدرة العصماء

شعر أحمد شوقي

وقد روى الترمزي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشا ، واصطفى من قريشا بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم ، فهو صلى الله عليه وسلم من أشرف قريش ، ومن نخبة بني هاشم ، ومن خيرة العرب من قِبل أبيه وأمه ..

وعن ابن عباس أن المولد كان يوم الفيل .. واكتفى آخرون بأن ذكروا أنه كان في عام الفيل ..

وكانت سعادة البيت الهاشمي بهذا المولود فوق الوصف حتى أن عبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب) عم النبي قد اعتق جاريته (ثويبة الأسلمية) حين وافته ببشرى المولد النبوي الشريف .

ويُروى أن ابن العباس بن عبد المطلب رأى أخاه عبد العزى (أبو لهب) في المنام بعد موته بسنة فسأله عن حاله فأجاب أبو لهب إنه في النار ، إلا أنه يخفف عنه العذاب كل ليلة اثنين بماء يمصه من بين إصبعيه وذلك لأنه أعتق ثويبة حين بشرته بمولد محمد صلى الله عليه وسلم ..

وقد رُوي أن عبد المطلب رأى في منامه كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق وطرف في المغرب .. ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب يتعلقون بها .. وأراد عبد

المطلب أن يعرف تفسير الرؤيا فقيل له إنه سيكون له مولود من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض ..

وسألت قريش شيخها عبد المطلب عن سبب تسميته لحفيده محمدا فأجاب الشيخ أردت أن يكون محمودا في الأرض وفي السماء ..

إرضاع الحبيب ومراضعه صلى الله عليه وسلم والخير الذي أصاب حليمة

إن أول من تشرفت برضاعته صلى الله عليه وسلم هي والدته آمنة بنت وهب ثم أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب التي أرضعت عمه حمزة فكان أخا للنبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة .. ثم أرضعته حليمة بنت ذؤيب السعدية من بني سعد بن بكر .. وقد رأت في إرضاعه صلى الله عليه وسلم آيات ..

فلنتركها تحدثنا بنفسها عما شاهدت من آيات نبوية صلى الله عليه وسلم قالت : خرجت من بلدي مع زوجي وابن صغير لنا نرضعه في نسوة من بني سعد نلتمس الرضعاء ، وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئا .. خرجنا على آتان (حمارة) لنا قمراء ، ومعنا شارف لنا والله ما تبض بقطرة .. وما ننام ليلنا أجمع من بكاء صبينا الذي معنا من الجوع إذ ما في ثدي ما يغنيه وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج .. خرجنا نلتمس الرضعاء في مكة ..

فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ..

فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعا .. فلما أجمعنا على العودة إلى بلدنا قلت لزوجي : والله إني لأكره أن أرجع ولم أخذ رضيعا .. والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فآخذه ، فقال لي : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .. فذهبت فأخذته .. وما حملني على ذلك إلا أنني لم أجد غيره ، فلما رجعت به إلى رحلي ووضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ثم نام .. وقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا هي حافل فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريّاً وشبعا فبتنا بخير ليلة .. فلما أصبحنا قال لي زوجي : تعلمين يا حليمة ، لقد أخذت نسمة مباركة .. قلت والله إني لأرجو ذلك .. ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته عليها معي .. فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شئ من حمرهم حتى أن صواحبي قلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك إربعي علينا ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فقلت لهن : بلى والله ! إنها لهي هي .. فقلن والله إن لها لشأنا .. ثم قدِمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تروح على شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم :

ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي حليمة ، فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعا لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه ، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما خفرا (غليظا شديدا) فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شئ على مكثه فينا لما نرى من بركته .. فكلمنا أمه .. وقلت لها : لو تركت بنيّ عندي حتى يغلظ ، فإني أخشى عليه وباء مكة ، فلم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به ..

وبعد مقدمنا بأشهر وإنه لفي بُهْم لنا مع أخيه خلف بيوتنا أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه ..

قالت : فخرجت أنا وزوجي نحوه فوجدناه قائما منتقعا (متغيرا) وجهه ، فالتزمناه وقلنا له : مالك يا بني

قال : جاء لي رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني فالتمسا فيه شيئا لا أدري ما هو .. فرجعنا به إلى دارنا .. وقال لي زوجي :

يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك له فاحتملناه فقدمنا به على أمه فقالت : ما أقدمك به وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك فقلت لها : قد بلغ الله بابني ، وقضيت الذي علي وتخوفت الأحداث عليه فأديته إليك كما تحبين ،

قالت : ما هذا شأنك .. فأصدقيني خبرك ، فلم تدعني حتى أخبرتها ..

قالت : أفتخافين عليه الشيطان

قلت : نعم .. قالت : كلا ، والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لِبَنيَّ لشأنا ، أفلا أخبرك به ؟ قلت : بلى ..

قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف علي ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء .. دعيه عنك وانطلقي راشدة ..

- - -

وهكذا كان استرضاعه صلى الله عليه وسلم في بادية بني سعد شأنه شأن أبناء سادات قريش يرضعون أولادهم في البوادي ليصحوا أجسامهم ويفصحوا لسانا ويقووا حنانا .. ولقد قال حين مرة ، معتز بشرف أصله واسترضاعه في البادية :

" أنا أعربكم ، أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر " ١

- - -

وعاش محمد صلى الله عليه وسلم طفلا في مكة مع حنان أمه ورعاية جده عبد المطلب .. فكان يجلس معه على فراشه الذي كان يُعد له عند الكعبة وكان بعض أعمامه يحاول أن يمنعه من الجلوس فيقول : دعوا

---

(١) أبو بكر الجزائري ، هذا الحبيب محمد يا محب ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م ، ص ٥٩

ابني فإن له لشأنا ويجلسه إلى جواره على الفراش ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع ، وكان يوصي أم أيمن (بركة الحبشية) فيقول لها يا بركة لا تغفلي عنه فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبيّ هذه الأمة ..

وهكذا عاش صلى الله عليه وسلم مع أمه في رعاية جده محفوفا برعاية الله وحفظه

ولما بلغ السادسة من عمره بدت عليه بوادر النضج المبكر ورأت أمه فيه مخايل الرجل العظيم الذي طالما تمثلته ووُعدت به من رؤاها .

عندئذ أدركت أن الأوان قد آن لكي تؤدي واجبا مفروضا وتحقق رغبة طال انتظارها ، فحدثت ابنها عن رحلة يقومان بها معا إلى يثرب كي يزور قبر الحبيب الثاوي هناك .. قبر والده ..

وهش الابن لفكرة السفر وسره أن يصحب أمه في زيارة فقيدها ، وأن يتعرف على أخوال أبيه المقيمين بيثرب ..

وشُغلت آمنة أياما بتجهيز راحلتها وإعداد مئونة الطريق ، ثم زودت ناقتها بهودج من أغصان مجدودة ذي مظلة مرفوعة تحجب الشمس عن الابن العزيز الغالي ..

وأقامت بعد ذلك تنتظر أول قافلة تخرج من مكة نحو الشمال في رحلة الصيف الموسمية ، فلما أذن المؤذن بالرحيل ضمت إليها ولدها وركبت راحلتها بصحبة الجارية الوفية بركة (أم أيمن)

وشارفت الرحلة منتهاها فجمعت آمنة نفسها وأقبلت على ولدها تحدثه عن أبيه ، ثم دعته أن يتطلع معها إلى المدينة البيضاء التي بدأت تتكشف من وراء جبل أحد حيث تتبسط الأرض ويتموج عشبها الأخضر ، وتحنو عليها ظلال النخل الباسقات ..

وأناخ الركب رواحله في يثرب .. ثم استأنف مسيره شمالا بعد أن ترك آمنة وولدها وجاريتها في حِمَى بني النجار ..

ولم يكد يستقر بها المقام بين ترحيب القوم واحتفالهم حتى خلت بين ولدها مع أبناء أخواله فانطلقوا إلى ملاعبهم يلعبون ويمرحون .. ومضت هي إلى قبر الحبيب تناجيه وتبكيه ..

وطاب لهما العيش شهرا كاملا نَفّست فيه عن حزنها المكبوت ، وأسعفتها عيناها بما شاءت من دمع ، وتمتع ولدها بصحبة رفاقه من بني الخال ..

وحان موعد الرحيل .. وودعت آمنة مضيفيها شاكرة لهم ما لقيت وولدها من جميل ترحابهم وكرم ضيافتهم .. ثم ركبت راحلتها وركب معها ولدها وجاريتها فعرجت على القبر تزور صاحبه للمرة الأخيرة ثم أسلمت نفسها إلى أشجانها والناقة تمضي بها وبمن معها نحو مكة .. وتشبثت بوحيدها تعانقه وقد انهمرت الدموع من عينيها .. فأخذ يجفف دمعها بيده ..

وفجأة تراخت ذراعاها عنه فحدق فيها .. فراعه أن بريق عينيها يوشك أن ينطفئ وأن صوتها يخفت رويدا رويدا حتى يصير إلى حشرجة

هامسة .. ثم همست .. كل حي ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفني وأنا ميتة وذكري باق ، فقد تركت خيرا ، وولدت طهرا .. وذاب صوتها في سكون العدم ..

وخيم على الكون صمت رهيب .. وانحنى الصبي على جثة أمه في العراء يناديها فلا تلبي النداء ..

والتفت إلى أم أيمن .. فضمته إلى صدرها ..

وعلا نحيب القوم من إشفاق وتأثر ، وخلّوا بينه وبين أمه ساعة .. ثم نحّوه عنها في رفق وأضجعوها في لحدها وهالوا عليها الرمال ..

وتم دفنها في قرية الأبواء ..

وعاد الحبيب إلى مكة في صحبة أم أيمن ..

وشهدت مكة هذا الصبي الحزين الذي خرج من مكة مع أمه منذ شهر بادي الغبطة والتهلل والإشراق يعود إليها اليوم وحيدا مضاعف اليتم قد ذاق الحزن المر ورأى بعينيه مشهد الموت في أعز من له [1]

وفي مكة عاش محمد في رعاية جده عبد المطلب ..

وفي الثامنة من عمره توفي الجد الذي كان قد أوصى ابنه أبا طالب بمحمد صلى الله عليه وسلم .. فكفل أبو طالب ابن أخيه فكان معه كأحد أبنائه .. وكان أبو طالب فقيرا فأثرى وكثر ماله ببركة محمد صلى الله عليه وسلم اليتيم ..

---

(١) د . عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، تراجم سيدات بيت النبوة ، دار الريان للتراث ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ١٦١ – ١٦٨ بتصرف

ولما بلغ محمد الثانية عشرة من عمره خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في قافلة لتجارة قريش حيث أخذه عمه معه وقال :

والله لأخرجن به معي لا يفارقني ولا أفارقه ..

نزول أبو طالب ورسول الله ببحيرى

لما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى في صومعة له ، وكان إليه عِلم النصرانية ، وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام .. فنزلوا في ظل شجرة قريبة منه فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ومالت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها .. فلما رأى بحيرى ذلك نزل من صومعته إليهم فقال :

إني صنعت لكم طعاما يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم ، فقال له رجل منهم والله يا بحيرى إن لك لشأنا اليوم ، فما كنت تصنع لنا هذا وقد كنا نمر بك كثيرا ، فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرى : صدقت ، فقد كان ما تقول ، ولكنكم ضيوف ، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم ، فاجتمعوا إليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم - لحداثة سنه - في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده ..

فقال : يا معشر قريش ، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي ، قالوا له : يا بحيرى ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث

القوم سنا فتخلف في رحال القوم .. فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم ..

فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزى إن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام بيننا ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم ..

- - -

وجعل بحيرى يلحظ محمدا وينظر إلى أشياء في جسده قد كان يجدها عنده في صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى فقال : يا غلام .. أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه .. وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما ..

فقال صلى الله عليه وسلم : لا تسألني باللات والعزى شيئا .. فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما .. فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه .. فقال له صلى الله عليه وسلم : سلني عما بدا لك

فجعل يسأله عن أشياء من حاله ، من قومه ، وهيئته ، وأموره ، فجعل صلى الله عليه وسلم يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته .. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده ..

فلما فرغ بحيرى أقبل على أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟

قال : ابني

قال له بحيرى : ما هو ابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا

قال : إنه ابن أخي

قال : فما فعل أبوه

قال : مات وأمه حبلى به

قال : صدقت .. فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده ..

فخرج به عمه أبو طالب سريعا حين فرغ من تجارته بالشام وعاد به إلى مكة ..

وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية ، لما يريد به من كرامته ورسالته حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأكرمهم حسبا وأحسنهم جوارا وأعظمهم حلما ، ،أصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزها وتكرما ، حتى ما اسمه في قومه إلا الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة ١

خروجه إلى الشام في تجارة لخديجة

جلس النبي في بيت عمه أبي طالب يفكر .. سرت أمامه صورة أمه التي ماتت وتركته .. وتذكر أبيه الذي لم يره .. وجده الذي كان يحبه كثيرا ثم مات وتركه يواجه الحياة والوحدة والفراغ ..

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ج ١ ، ص ١٨٣ ــ ١٨٥

وبينما هو كذلك إذ بعمه أبي طالب يقبل عليه متحرجا فيقول له : يا ابن أخي هذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالا من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك وأمانتك ..

فقال لعمه : لعلها ترسل إليّ

وحدث بالفعل .. فأرسلت إليه خديجة ..

وأقبل إليها محمد بن عبد الله .. واستقبلته مرحبة .. ومدحت فيه ما كانت سمعته عن صدقه وأمانته وحسن سيرته .. ثم عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره ..

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلة الصيف إلى الشام بمال خديجة ومعه غلامها ميسرة ولما بلغا بُصرى من الشام نزلا في ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا ، فاطلع الراهب إلى ميسرة وسأله : من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال ميسرة : هذا رجل من قريش من أهل الحرم .. فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ..

ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشتري ، ثم أقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة ..

وكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من الشمس ..

وعادت القافلة إلى مكة .. وكانت خديجة تقف في شرفة دارها تطل على القافلة المقبلة مع بعض جواريها ، وإذ لاح محمد من بين الرجال أحست بقلبها يخفق فجأة ويتفتح له وأدركت أنها إنما كانت تنتظره هو حقا .. محمد نفسه .. لا الأجير الذي سيسلمها ربحها من التجارة ..

وحدثها ميسرة عن قول الراهب عن محمد ، وما كان يرى من إظلال الملكين إياه ..

زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بخديجة

كانت خديجة من خيرة نساء قريش شرفا وأكثرهن مالا وأحسنهن جمالا .. وكانت تدعى في الجاهلية الطاهرة .. ويقال لها سيدة قريش وقد تطلع الكثير من سادات مكة إلى السيدة خديجة يبغون الزواج منها ولكنها رفضتهم جميعا .. وقد وجدت ما تنشده وما تبغيه في هذا الرجل الأمين محمد ..

وهنا أفضت عما يدور في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية

ذهبت نفيسة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألته : ما يمنعك أن تتزوج ؟

قال صلى الله عليه وسلم : ما بيدي ما أتزوج به

قالت : فإن كفيت ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجب ؟

قال صلى الله عليه وسلم : فمن هي ؟

قالت : خديجة بنت خويلد

قال صلى الله عليه وسلم : وكيف لي بذلك ؟

قالت : عليّ أنا هذه المسألة

قال صلى الله عليه وسلم : فأنا أفعل

ورجعت نفيسة إلى الطاهرة خديجة تحمل خبر نجاحها في مهمتها وزفت إليها نبأ موافقة محمد على الزواج .. فأرسلت خديجة إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر ..

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت خديجة في آل عبد المطلب

قام أبو طالب خطيبا فقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتا محجوبا وحرما آمنا ، ثم إن ابن أخي محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل من قريش شرفا ونبلا وفضلا إلا رجح به ، ومحمد من عرفتم قرابته وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعليّ

ووافق عم خديجة عمرو بن أسد .. وكان شيخا كبيرا .. وتم الزواج

- - -

إعادة بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود

همت قريش أن تعيد بناء الكعبة ، حتى إذا بلغت موضع الحجر الأسود اختلفت أحياء قريش فيمن يضع هذا الحجر في موضعه ، فمن يتاح له ذلك سيظفر بشرف أي شرف ، وما هي إلا أن يتحول الخلاف إلى

خصومة تشتد وتعنف حتى يُخشى شرها ، وأشار أولي الرأي فيهم بالتحكيم وبأن يحكموا أول داخل عليهم فيحكمونه وكان أول من دخل عليهم محمد صلى الله عليه وسلم فقال كبيرهم : هذا الأمين .. رضينا به حكما .. فحكموه فيما شجر بينكم .. ويقضي صلى الله عليه وسلم قضاء يرضيهم ..

بسط رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه ووضع الحجر في وسطه ثم أمرهم بأن يأخذوا أطراف الرداء فيحملوه ويمشوا به حتى إذا بلغوا البناء أخذ الحجر فوضعه بيده الشريفة في موضعه ١

ميل الرسول إلى العزلة وبداية الوحي

رُوي عن عائشة أن أول ما ابتدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة .. وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ..

ثم بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يميل إلى العزلة شيئا فشيئا حتى اشتد عليه حب العزلة فجعل يترك مكة بين حين وحين ويمضي حتى إذا بلغ غار حراء خلا فيه إلى نفسه الأيام والليالي متفكرا في خلق الله متفكرا في هذا الكون وما فيه .. وكان هذا الغار بعيدا عن العمران .. كان على رأس جبل يلفه السكون والهدوء ..

وأصبحت هذه الخلوة له عادة .. ولكنه يعود إلى أهله ذات يوم ولها مفجعا شديد الاضطراب ويقص على خديجة شيئا عجبا ..

---

(١) الإمام محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ، ج ١ ، ص ١٧٣ ، ١٧٤

قال صلى الله عليه وسلم إنه كان خاليا إلى نفسه في غار حراء فرأي شخصا أمامه يقول : اقرأ .. قال : ما أنا بقارئ فضمه ضما شديدا حتى بلغ منه الجهد .. ثم أسلمه وقال له للمرة الثانية اقرأ .. قال : ما أنا بقارئ .. فضمه ضما شديدا حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له

(اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم) ..

ثم استخفى حتى لا يرى النبي صلى الله عليه وسلم شيئا ولا يسمع شيئا فيخرج من الغار واجما إلى أهله مرتاعا مذعورا ، وأخبر زوجته خديجة بما حدث وأنه قد خشي على نفسه فقالت له : والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضعيف ، وتعين على نوائب الحق ..

- - -

انطلقت الزوجة الصالحة برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد وكان قد تنصر في الجاهلية وسمع من أهل التوراة والإنجيل .. وقص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدث .. قال ورقة والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة .. هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى .. ليتني أكون حيا فأنصرك إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجي هم ؟ قال : نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي

ثم بدأ نزول القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكليفه بالرسالة .. والنبوة أثقال ومؤنة لا يحملها ولا يستطيعها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله وتوفيقه لما يلقون من الناس وما يُرد عليهم مما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالى .. فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى ١

وبدأ بالدعوة سرا لمدة ثلاث سنوات قبل أن يأمره الله تعالى بالجهر بالدعوة ..

وصدقت خديجة بما جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه وكانت أول من استضاء بنور النبوة وأول من آمن بالله ورسوله ..

ولمواقفها الكريمة الجليلة مع رسول الله ووقوفها بجانبه كرمها الله وفضلها على نساء العالمين ..

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب في الجنة لا صخب فيه ولا نصب " ٢

وكان أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى معه من الصبية علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ..

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة يحدث الناس عن رسالته في رفق كمن يتحسس طرقه بينهم ..

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ١ ، ص ٢٤١

(٢) الإمام محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ، ج ١ ، ص ٣٢٧

وكان في الكعبة بعض فتيان ورجال يكبرونه سنا ويعرفون فيه الصدق والشجاعة .. وعجبوا لما يدعوا إليه ، ما هو هذا الإله الواحد الذي يتحدث عنه ؟ أيكون إيثاره للخلوة قد أثر عليه ؟ إنه لعاقل وحكيم .. فما من حقه أن يدعو إلى غير ما يعبد قومه أين حكمته ..

وأشفق عليه نفر منهم فقاموا ينصحونه .. ولكنهم رأوا إصراره فآثروا أن يرسلوا إلى أبي بكر أحب أصدقائه إليه وأكرمهم عنده ..

فأبو بكر بن قحافة تاجر غني يكسب من الأشهر الثلاثة التي يحج فيها الناس إلى آلهة الكعبة ، وسيبور جزء من تجارته لا ريب إذا شاعت دعوة صديقه محمد بن عبد الله فشك العرب في آلهة الكعبة واتجهوا إلى هذا الإله الواحد الذي لا يحده مكان وأبو بكر واحد من عشرة رجال يحكمون مكة .. وله في قلب محمد منزلة خاصة .. فلعله يستطيع أن يرجعه عما أخذ فيه ..

وانطلق العقلاء منهم جزعين إلى أبي بكر فقالوا له : يا أبا بكر إن صاحبك .. فقاطعهم في قلق : وما شأنه ؟ قالوا : هو ذاك في المسجد يدعو إلى عبادة إله واحد ويزعم أنه نبي ..

ففكر أبو بكر قليلا قبل أن يسألهم (أقال ذاك) قالوا نعم .. وانصرفوا مشفقين ..

اندفع أبو بكر - لم يكلم أحدا ولم يلتفت إلى أحد- إلى الكعبة حتى أتى محمدا فقال له يا أبا القاسم ، ما الذي بلغني عنك ؟

قال صلى الله عليه وسلم : وما بلغك عني يا أبا بكر ؟

قال أبو بكر : بلغني أنك تدعو إلى توحيد الله وزعمت أنك رسول الله

قال صلى الله عليه وسلم : نعم يا أبا بكر إن ربي جعلني بشيرا ونذيرا وجعلني دعوة إبراهيم ، وأرسلني إلى الناس جميعا ..

وأبو بكر إذ ذاك هو أكثر رجال قريش علما بتاريخ العرب وأعمقهم ثقافة يعرف الأنساب والسير والديانات التي عاشت في الجزيرة ومن حولها على مدى القرون ..

ولم يتردد أبو بكر .. وقال : والله ما جربت عليك كذبا ، وإنك لخليق بالرسالة لعظيم أمانتك وصلتك لرحمك وحسن فعالك مد يدك فإني مبايعك .. وأسلم أبو بكر .. اسلم الصديق مبكرا وكان أول من أسلم من الرجال الأحرار .. وقد قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن قحافة ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه "

وشاعت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بين الأجراء المستضعفين والعبيد يوما بعد يوم .. أخذوا يعتنقونها .. إنها تمنح العبد حق الحرية وتجعل للفقير حقا معلوما في مال الغني ..

هذه التعاليم تنهي الآباء والأزواج على إكراه فتياتهم على البغاء وهي تكفل للمرأة حياة متكافئة مع زوج يسكن إليها وينفق عليها ، ويعاشرها بالمعروف ويسرحها بإحسان ، ويدفع لها مهرا عند الزواج ونفقة بعد الطلاق ..

وهكذا انتشرت التعاليم الجديدة بين النساء والعبيد والأجراء ..

وسادة قريش ينظرون إلى محمد مستخفين .. فما اتبعه إلا الأرزال .. ولم يرق هذا لأبي بكر .. من الحق أن هؤلاء قد وجدوا خلاصهم في الدين الجديد .. ولكن مكة مع ذلك حافلة بغير العبيد والمستضعفين والأجراء .. وما يجب أن يكون كل أعوان محمد من الذين تجوز عليهم سخرية سادة مكة .. ومن سادتها رجال يأنسون إلى أبي بكر ويألفونه .

وصمم أبو بكر على أن يعزز تعاليم محمد ببعض الصحابة الذين يثقون به ليس كل أغنياء مكة غرقى في الخطايا ، فمنهم من يرفض الربا مثله وينكر مثله أسلوب الحياة في مكة ، والقلب الطيب يتجه إلى الخير ويرفض الأذى ويضيق بآلام الآخرين مهما يكن ضغط المصالح المالية فليست المصلحة دائما هي التي تحرك الرجال ..

واتجه أبو بكر إلى أعز أصدقائه عليه .. عثمان بن عفان .. وهو من أشراف قريش .. ومن كبار أغنيائها .. وحدثه عن محمد و تعاليم محمد وسمع عثمان طويلا .. أليس هو محمد الأمين ؟ أليس هو والد رقية .. لقد وقع منها في قلب عثمان شيء .. ولكن أباها زوجها لابن عمه .. أبي لهب ..

وخفق قلب عثمان .. ولكنه أخذ يتفتح للتعاليم الجديدة .. فطالما ضاق باستكبار أصدقائه الأغنياء وتعنتهم مع الفقراء والمساكين .. ولطالما اشمأز من فسق الحياة الآثمة في قريش ..

وآمن عثمان بعد أن أقنعه أبو بكر ..

ومازال أبو بكر بأصدقائه حتى آمن الزبير بن العوام ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله .. وكلهم تاجر غني يسلك أسلوب الطهر في التجارة ، ويأنف الربا والظلم ، وما عرفوا ككبار قومهم مباذل الليل في مكة ..

كلهم له المال والقول ، وكلهم سادات في قومهم .. فلن يسخر أحد منهم وما من حق أحد أن يسخر بتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم ..

فهؤلاء هم الصفوة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنهم يضاف إليهم علي بن أبي طالب ، زيد بن حارثة ، أبو بكر الصديق .. فهؤلاء النفر الثمانية هم أهل السبق في الإسلام إذ آمنوا وصلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أي أحد من الناس باستثناء السيدة خديجة إذ كانت أول المؤمنين .

الجهر بالدعوة

بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة أمر الله رسوله أن يجهر بالدعوة على أن يبدأ بعشيرته الأقربين ..

يقول البخاري في صحيحه عن ابن عباس : لما نزلت الآيات (وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي ، يا بني فهد ، يا بني عدي ، لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الذي لا يستطيع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ..

قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ " قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا قال صلى الله عليه وسلم : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، أنقذوا أنفسكم من النار " ..

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا

فنزل قوله تعالى ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وكسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد** ﴾ ١

- - -

وبهذا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد استجاب لأمر ربه .. فبعد أن كان يدعو من يدعوه في مناجاة ، ثم اقتصرت الدعوة العلنية على عشيرته الأقربين بعدئذ أخذ يدعو كل من يلقاه ، وأخذ يغشي الأسواق التي حول مكة المكرمة يدعو إلى دينه وتبليغ رسالة ربه وجهرا لا يصرفه عن ذلك صارف ، وتسلط عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم الأشداء الأقوياء ٢

وكان أشدهم إغلاظا عليه عمه عبد العزى (أبو لهب) وثانيهم عمرو ابن هشام الذي لقبه التاريخ الإسلامي بحق بلقب أبي جهل ٣

---

(١) سورة المسد – آية ١ – ٥
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٣ ، ص ٤٠
(٣) محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ، ج ١ ، ص ٣٤٨

وعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهله لِمَ يرفضون كلامه وكلهم يعرف فضائله وأمانته ، وأنه صادق لا يدعو إلا إلى الخير ..

لكم تمنى لو أنهم آمنوا بتعاليمه كما صنع علي بن أبي طالب ..

- - -

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته ذات مساء وقلبه مثقل بما يعانيه الذين اتبعوه .. وفي أعماقه رغم كل شئ تتقد شعلة الإصرار التي يجب ألا تنطفئ أبدا ..

وفجأة فُتح الباب .. وأقبلت رقية بنت محمد .. وبكت إلى أمها .. لقد طلقها عقبة بن أبي لهب ، واعتدى عليها أبو لهب فضربها ، ومزقت امرأته ثيابها ، وأقسموا جميعا ألا تبقى في بيتهم مادام أبوها يسلك من قريش ومن أبي لهب هذا السلوك ، وأقسموا أنهم سيمنعون الرجال من الزواج ببنات محمد ..

وواست خديجة ابنتها التي أصبحت الآن امرأة صغيرة طريدة ومسح أبوها دموعها ..

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صديقه أبي بكر يشكو له ما صنعه آل بيت أبي لهب به وما صنعوه بابنته .. فروى له أبو بكر أن عثمان بن عفان كان قد دخلته الحسرة لأن عتبة بن أبي لهب سبقه إلى رقية وأن عثمان ليرنو إليها ..

وما هي إلا أيام حتى زوجها عثمان بن عفان التاجر الثري ذو الخلق ..

- - -

وتتابع أشراف قريش يدخلون في الإسلام فأسلم أبو عبيدة بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن مظعون وأخويه وعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب وأسماء وعائشة ابنتي أبي بكر وخباب بن الارت وعبد الله بن مسعود .. وغيرهم ..

وأسلم عمر بن الخطاب .. فكبّر الرسول وكبر المسلمون من ورائه ، وكانوا نحو اربعين إلا واحدا فأكتملوا بعمر بن الخطاب أربعين

ونصحه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستتر إسلامه كيلا تؤذيه قريش وليس له فئة ينصرونه ، فقال عمر : والذي بعثك بالحق لأعلننّ الإسلام كما أعلنت الشرك ..

وأقبل المسلمون بعضهم على بعض فرحين بإسلام عمر .. منذ ثلاثة أيام أسلم حمزة فعز به الإسلام ، وها هو ذا عمر يسلم الليلة ليزداد الإسلام والمسلمون عزا ومنعة ..

قال عمر : يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟

قال صلى الله عليه وسلم : " بلى ، والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم "

قال عمر : ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن ..

يروي عمر : فخرجنا في صفين ، حمزة على رأس أحدهما ، وأنا على الآخر ، حتى دخلنا المسجد ، فنظرت إليّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، فسماني رسول الله الفاروق ..

كما سماه أبا حفص ، وحفص هو الأسد .. ١

- - -

أقض هذا الموقف الجديد مضاجع المشركين وأفزعهم وزادهم هولا وفزعا تزايد عدد المسلمين وعدم مبالاتهم بعداء المشركين لهم الأمر الذي جعل رجالات قريش يساومون رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثوا إليه عتبة بن ربيعة يقول له :

يا ابن أخي إنك منا من الشرف العشيرة والمكان في النسب وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قل يا أبا الوليد أسمع "

قال : يا ابن أخي ، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سوّدناكَ علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا .. وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ..

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوي ، الفاروق عمر بن الخطاب ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ ، ص ١٤

وكان رد المصطفى صلى الله عليه وسلم : " بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون "

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ، وعتبة يستمع منصتا حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد ، ثم قال " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك " ..

وعاد عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس قال لهم : إني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة .. أطيعوني واجعلوها لي وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملكم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس ، فما كان جوابهم إلا أن قالوا : سحرك يا أبا الوليد بلسانه .. فقال : هذا رأي فيه فاصنعوا ما بدا لكم ١

وبعد أن استمعوا إلى عتبة بن ربيعة كونوا وفدا من أعظم رجالاتهم وبعثوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليساوموه بنفس المساومة فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ،

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨١-٢٨٢

ولكن الله بعثني إليكم رسولا وأنزل علي كتابا وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فأبلغكم رسالات ربي .. ونصحت لكم فان تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم " ..

ولما سمعوا هذا الرد الكريم فقدوا صوابهم وجن جنونهم وطلبوا من النبي أن يدعو ربه ليحي لهم من مات من آبائهم ، وأن يزيل عنهم الجبال المحيطة بمكة ، وأن يفجر خلالها الأنهار لتصبح حدائق من نخيل وأعناب ..

وهنا أمره ربه أن يقول لهم : " سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا " ..

واستمر الرسول في دعوته .. فذهب وفد من قريش إلى عمه فقالوا له إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه .. فقال لهم أبو طالب الكيس قولا رقيقا وردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه ..

واستمر الرسول في دعوته .. فعاد وفد قريش إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا يا أبا طالب إن لك شأنا وشرفا ومنزلة فينا وإنا قد استأنيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفسا بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا خذلانه ، وأراد أبو طالب أن يعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصابه من ضيق ويشركه في أمر قومه الذي تفاقم .. فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيق ، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمه خاذله ومسلمه ، وإنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه .. فقال صلى الله عليه وسلم مقالة أولي العزم من الرسل : " يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته " .. ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ثم قام ..

فناداه عمه أبو طالب وقال : أقبل يا ابن أخي فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشئ أبدا ..

ولما عرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهبوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أشد فتى في قريش وأجملها فخذه فلك عقله ونصره ..

واتخذه ولدا فهو لك وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل برجل

فقال أبو طالب : والله لبئس ما تسومونني ..

اتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني لتقتلوه ! هذا والله مالا يكون أبدا .. [1]

ولما أعيت الحيل قريشا ولم تجد ما تدفع به دعوة الحق بعثت وفدا إلى يثرب يجلي لها حقيقة الموقف بواسطة أحبار اليهود لأنهم أهل كتاب وذو علم بالأديان .. وذهب الوفد إلى يثرب فسأل أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفوا لهم أمره .. فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث أمور فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ..

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب .. وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هي ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فهو متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم

وعاد الوفد إلى قريش فأخبروهم بما قال أحبار يهود ..

وسألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم وقال غدا أخبركم ولم يستثن (أي لم يقل إن شاء الله) وانصرفوا عنه ..

[2]

---

(١) الإمام محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ، ج ١ ، ص ٤١٩ - ٤٢٠

وحُبس الوحي عنه لعدم استثنائه قرابة نصف الشهر حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرحت قريش .. وقالوا الكثير من القول حتى قالوا : قلاه شيطانه الذي كان يأتيه .. ثم أنزل الله تعالى سورة الضحى ينفي فيها ما قالته قريش وإدعاء بعضهم من غلاة المبغضين له صلى الله عليه وسلم من أن الله تعالى قد قلاه أي تركه وأضاعه مبغضا له ، وأنزل سورة الكهف وفيها بيان حديث أصحاب الكهف تفصيلا وفيها خبر الرجل الطواف وهو الإسكندر ذو القرنين ، ونزل في شأن الروح قوله تعالى في سورة الإسراء ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .[1]

عدوان المشركين على المستضعفين ممن أسلم بالأذى والفتنة

بعد أن فشلت قريش في إطفاء أنوار الدعوة المحمدية بطشوا بالمستضعفين من المؤمنين ومنهم بلال وآل ياسر ..

ما لقيه بلال .. وتخليص أبي بكر له

كان بلال مملوكا لأمية بن خلف وكان أمية يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره .. ثم يقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول بلال وهو في ذلك البلاء : أحد أحد

---

(١) أبو بكر جابر الجزائري ، هذا الحبيب محمد يا محب ، دار الفكر للتراث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣ م ، ص ٨٨ – ٩٠ بتصرف

ومر أبو بكر وهم يعذبون بلال فعرض على أمية بن خلف أن يعطيه غلاما اسود أجلد من بلال بدلا منه فوافق وأخذ أبو بكر بلال وأعتقه ١

تعذيب قريش آل ياسر

مر الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يعذبون آل ياسر (عمار ووالده وأمه) فقال لهم صلى الله عليه وسلم:" صبرا آل ياسر موعدكم الجنة " قتلوا سمية أم عمار ووالده .. واشتدوا في تعذيب عمار .. وقالوا له لن نتركك حتى تذكر محمدا بسوء وتذكر آلهتنا بخير ففعل فتركوه .. فجرى إلى رسول الله يبكي ويقص عليه ما حدث .. سأله الرسول كيف تجد قلبك .. قال أجده مطمئنا بالإيمان فقال صلى الله عليه وسلم : " إن عادوا يا عمار فعد " .. وأنزل الله تعالى قوله **﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾** ٢

واشتد المشركون في تعذيب المستضعفين من المؤمنين

الهجرة إلى أرض الحبشة

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء ، ورأى النبي أنه غير قادر على حمايتهم أذن لهم في الهجرة إلى الحبشة فقال لهم : " لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه " ..

(١) السيرة الكاملة لكل من الصحابة بلال وعمار بن ياسر ووالده في كتابنا مدرسة الرسول
(٢) سورة النحل – آية ١٠٦

فخرج المسلمون من مكة فرارا بدينهم إلى أرض الحبشة ، فكانت أول هجرة في الإسلام .. وكان ذلك في شهر رجب سنة خمس من البعثة وهي السنة الثانية من الجهر بالدعوة ..

وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة يدعو إلى ربه سرا وجهرا .. وصابرا موقنا بنصر الله ولدعوته .. وهو يتعرض لأذى قريش كل يوم ..

إرسال قريش إلى الحبشة في طلب المهاجرين إليها

لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة وأنهم قد أصابوا بها دارا وقرارا ائتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جلدين إلى النجاشي فيردهم عليهم ليفتنوهم في دينهم ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وآمنوا فيها ، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص وحملوهم هدايا للنجاشي ولبطارقته ..

ولما وصل رسولي قريش إلى الحبشة قابلا النجاشي فقالا له : أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين جديد ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ..

فقال النجاشي : قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي لا أسلمهم حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذا في أمرهم ..

ودعا النجاشي بإحضار المهاجرين فحضروا .. وسألهم : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني أو دين أحد من هذه الملل ؟

وتحدث جعفر بن أبي طالب عن المهاجرين فقال :

أيها الملك ..كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فعبدناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ولم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك ..

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شئ ؟

قال جعفر : نعم

فقال النجاشي : فاقرأه عليّ

فقرأ جعفر صدرا من سورة مريم

فقال النجاشي إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ..

ونظر لمن حوله من الرهبان والقسيسين وفاضت أعينهم من الدمع ، فهم الذين أنزل الله فيهم قوله تعالى **﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾** ١

ولم يجب النجاشي رسولي قريش إلى ما طلبوا ، فوشوا إليه أن هؤلاء يقولون في عيسى قولا عظيما ..

فاستدعى النجاشي المهاجرين إلى مجلسه فحضروا وفي مقدمتهم جعفر ابن أبي طالب فسألهم ماذا تقولون في عيسى بن مريم ..

قال جعفر بن أبي طالب : نقول الذي جاءنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ..

فأخذ النجاشي عودا من الأرض وقال : ما زاد عيسى على هذا ولا هذا العود ..

فتناخرت بطارقته عنده ، فقال : وإن نخرتم ..

وقال للمهاجرين : اذهبوا ، فأنتم سيوم بأرضي ، من سبكم غرم ..

(السيوم هم الآمنون في لسانهم)

ثم قال للرسولين : لو أعطيتموني جبلا من ذهب ما أسلمتهم إليكما ..

---

(١) سورة المائدة – آية ٨٢ - ٨٣

ثم أمر فرُدت عليهما هداياهما ، ورجعا مقبوحين [1]

صحيفة قريش .. وما حل بها ..

بعد إسلام حمزة بن أبي طالب وعمر بن الخطاب .. وتزايد عدد المسلمين ، وعودة وفد قريش من الحبشة خائبا وعلمهم بما لقي المهاجرون هناك من إكرام وتأمين أجمعوا على أن يتعاقدوا على بني هاشم وبني عبد المطلب وبني عبد مناف أن لا يبايعوهم ولا يناكحوهم ولا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في سقف الكعبة .. وحُبس رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه في شعب أبي طالب ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة وبقوا محبوسين ومحصورين مُضَيقا عليهم نحو ثلاث سنين حتى بلغهم الجهد .. ثم أطلع الله رسوله على أمر صحيفتهم وأنه أرسل عليها الأرضة فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل فأخبر بذلك عمه أبا طالب ، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قال كذا وكذا فإن كان كاذبا خلينا بينكم وبينه ، وإن كان صادقا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا ، قالوا : قد أنصفت فأنزلوا الصحيفة ، فلما رأوا الأمر كما أخبر به رسول الله صلى الله

(١) الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ،زاد المعاد في هدي خير العباد ، دار الريان للتراث ، القاهرة ١٩٨٧ ، ج ٢ ، ص ٦٦ - ٦٧

عليه وسلم ازدادوا كفرا إلى كفرهم .. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الشعب [1]

خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف

فلما نقضت الصحيفة وافق موت أبي طالب وموت خديجة فاشتد البلاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفهاء قومه ، وتجرؤا عليه فكاشفوه بالأذى ..

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف رجاء أن ينصروه على قومه .. ودعاهم إلى الله عز وجل فلم يرى من يؤدي ، ولم ير ناصرا وآذوه بأشد الأذى – وكان معه مولاه زيد بن حارثه – وأغروا سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه .. فعمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها مستظلا بها .. وهناك قال :

" اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس .. يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي .. إلى من تكلني .. إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري .. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي .. غير أن عافيتك هي أوسع لي .. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو أن يحل علي سخطك .. لك العتبى حتى ترضى (أي استرضيك حتى ترضى) .. ولا حول ولا قوة إلا بك .. "

---

(١) ابن كثير ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٤٣

ولما فرغ صلى الله عليه وسلم من دعائه رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة فدعا غلاما لهما يقال له عداس وأمراه أن يأخذ قطفا من عنب فيضعه في طبق ثم يذهب به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضعه تحت يديه ..

ففعل عداس ، فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه يده قال : بسم الله الرحمن الرحيم ثم أكل .. فنظر عداس في وجهه .. ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" ومن أي البلاد أنت يا عداس وما دينك " .. قال : نصراني من أهل نينوي ..

فقال صلى الله عليه وسلم : " من قرية الرجل الصالح يونس بن متي

فقال عداس : وما يدريك ما يونس بن متي ؟

قال صلى الله عليه وسلم : " ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي

فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه وهنا نظر ابنا ربيعة أحدهما للآخر ..

ولما جاءهما عداس قالا له : ويحك يا عداس .. مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدي ما في الأرض شئ خير من هذا لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي ، فقالا له : ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه ١

---

(١) أبو بكر جابر الجزائري ، هذا الحبيب محمد يا محب ، دار الفجر للتراث ، القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٣ ، ص ١١١

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدا مكة .. وفي الطريق قال له زيد بن حارثة كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك – يعني قريشا – فقال : " يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ، ومظهر نبيه "

ثم انتهى إلى مكة فأرسل رجلا من خزاعة إلى مطعم بن عدي ليدخل في جواره فقال نعم ودعا بنيه وقومه وقال لهم : البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمدا .. فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام فقام مطعم بن عدي على راحلته فنادى يا معشر قريش إني قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم .. فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف ومطعم بن عدي وولديه محدقون به السلاح حتى دخل بيته ١

رُوي عن عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟

قال صلى الله عليه وسلم : " لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم الطائف "

ذلك أنه صلى الله عليه وسلم دعا فريقا من أشرافها إلى وحدانية الله فلم تُثر دعوته في نفوسهم غير السخرية والاستهزاء فرموه بالحجارة في غير رحمة وأخرجوه من ديارهم ..

---

(١) الحافظ بن كثير ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ١٥٣

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق مما أنا فيه إلا وأنا بقرن الثعالب – على يوم وليلة من مكة – فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك وقد بعث إليك مَلك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فقلت : بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له " رواه البخاري

هذا من مزيد شفقته وحلمه وعظيم عفوه وكرمه ..

عام الحزن

مات فيه حماته من البشر .. وبقيت حماية ربه

في عام واحد توفي أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وزوجته خديجة وقد كانا يواسيانه ويشدان أزره ويمنعان عنه الأذى ..

وقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم العام الذي ماتا فيه بعام الحزن لأن أبا طالب كان يحميه إذا خرج إلى الطريق ممن يؤذيه ، وخديجة تُصدّقه إذا أوى إلى منزله وتسلّيه عن كل ما يجري عليه ، وتقول : أنت رسول الله حقا صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطيبين الطاهرين ورضي الله عن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ..

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب " .. وقد روى مسلم عن ابن مسعود قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جذور بالأمس فقال أبو جهل أيكم يقوم إلى سلا جذور بني

فلان فيأخذ فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد فانبعث سفيه من سفهاء قريش فأخذه .. فلما سجد النبي صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه فاستضحكوا ، وجعل بعضهم يميل إلى بعض ، وأنا نائم أنظر والنبي صلى الله عليه وسلم ساجد ما يرفع رأسه حتى ذهب من أخبر فاطمة فجاءت فطرحته عنه .. فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته رفع رأسه ثم دعا عليهم ، وكان إذا دعى دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا ثم قال : " اللهم عليك بقريش ، ثلاث مرات "

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك ، وخافوا دعوته ، ثم قال :

" اللهم بأبي جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عقبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ..

فوالذي بعث محمدا عليه الصلاة والسلام بالحق لقد رأيت الذين سمّى صرعى يوم بدر ..

يقول الإمام محمد أبو زهرة .. إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد فقد حماية أبي طالب فقد عوضه الله تعالى بحمايته ١

في حماية الله تعالى

جلس النبي صلى الله عليه وسلم يدعو مشركي مكة إلى الله تعالى ويبين لهم أن الأحجار لا تنفع ولا تضر وأنها لا تغني من الله شيئا .. ثم غادر مكانهم ..

---

(١) محمد أبو زهرة ، خاتم النبيين ، ج ١ ، ص ٤٤٨

فقام أبو جهل بن هشام فقال : يا معشر قريش .. إني أعاهدكم لأجلسن له غدا بحجر ، فإذا سجد في صلاته شججت به رأسه فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بَدا لهم ..

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجرا ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر وغَدَا رسول الله ، وكانت قبلته للشام فقام يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا ينتظرون .. فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل ، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع ممتقعا لونه مرعوبا وقد تيبست يداه على حجره ..

قالوا له : ما بك يا أبا الحكم !! فقال : قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، والله ما رأيت مثل هامته ، ولا قصرته ، ولا أنيابه لفحل قط ، فهم أن يأكلني ..

وهكذا نرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حماه ربه من قريش بما منع به شر الأشرار ، وبما منحه الله تعالى من قوة نفس وعزم صدق .

كما كانت حماية الله تعالى لرسالته ونبيه قد اقترنت بما أفاض الله عليه من مهابة كانت تظهر في أوقاتها حين كان الأذى يشتد والاستهزاء يكثر ..

رُوي أن رجلا قدم من أراش بابل إلى مكة ومعه مجموعة من الإبل فابتاعها أبو جهل بن هشام وماطل بأثمانها .. فأقبل الأراشي حتى وقف على نادي قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في ناحية

المسجد فقال : يا معشر قريش هل من رجل يعديني على أبي الحكم بن هشام فإني غريب وابن سبيل وقد غلبني على حقي ؟

فقال أهل المجلس ترى ذلك ، ويشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يهزءون به لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من العداوة .. اذهب إليه فهو يعديك عليه ..

فأقبل الأراشي حتى وقف على النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقام معه ، فلما رأوه قام معه قالوا لرجل ممن معهم : اتبعه فأنظر ماذا يصنع ..

فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأراشي حتى جاء دار أبي جهل فضرب عليه بابه .. فقال : من هذا ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. محمد .. فاخرج .. فخرج إليه وما في وجهه قطرة دم ، وقد امتقع لونه ..

فقال له صلى الله عليه وسلم : " أعط هذا الرجل حقه "

قال أبو جهل : لا تبرح حتى أعطيه الذي له .. فدخل وخرج إليه بحقه فدفعه إليه ..

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للرجل : " إرحل لشأنك "

فأقبل الأراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال : جزاه الله خيرا .. قد أخذت الذي لي ..

وعاد الرجل الذي بعثوه ، فقالوا : ويحك ، ماذا رأيت

قال : عجبا من العجب .. والله ما هو أن ضرب عليه بابه فخرج وما معه روحه ، فقال أعط هذا الرجل حقه فقال نعم لا تبرح حتى أخرج عليه حقه ، فدخل فأخرج للرجل حقه ..

ولم يلبث أن جاء أبو جهل إلى المجلس فقالوا : ويلك ، والله ما رأينا مثل ما صنعت .. فقال : ويحكم ، والله ما هو أن ضرب علي بابي وسمعت صوته فملئت رعبا ، فخرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط هم بي ليأكلني .. والله لئن أبيت لأكلني ..

الإسراء والمعراج

اصطفى الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم واختصه بمظاهر لطفه ومقامات كرمه

وتعهده في مراحل الدعوة ومواقف التبليغ بما يثبت قلبه ويشرح صدره ويجعله على بينة من صدق رسالته وصلاح شريعته وتأييد الله له ..

والناظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمتدبر للقرآن الكريم الذي أُنزل عليه يشهد الكثير من هذه المواقف التي تتجلى فيها عناية الله به ، وتقريبه منه وإشعاره بأنه الرسول الأكبر للرسالة الكبرى ..

يخاطب الله عز وجل أولي العزم من الرسل وسائر الأنبياء بأسمائهم مجردة فيقول تعالى (يا نوح اهبط بسلام وبركات عليك وعلى أمم

ممن معك) ، (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) ، (يا موسى أقبل ولا تخف) ، (يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك وعلى والدتك) ..

فإذا خاطب محمد صلى الله عليه وسلم وصفه بالنبوة تارة والرسالة أخرى فيقول جل شأنه (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) ، (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) ، (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك)

ولم ترى آية من آيات الكتاب يذكر فيها اسم الرسول عليه الصلاة والسلام إلا متبوعا بوصفه الكريم إعلاءا لقدره وإشارة إلى فضله وإمامته ، وترشيحه للشهادة على الأنبياء والمرسلين (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) ..

ولعل من أروع دلائل تكريم الرسول صلى الله عليه وسلم وأنطقها بمنزلته العظمى عند الله تعالى حادث الإسراء والمعراج ..

يقول الله تعالى **﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع العليم ﴾** ١

سبحانه جل شأنه بديع السموات والأرض إذا قضى أمرا فإنه يقول له كن فيكون ..

ومن آيات قدرته سبحانه وتعالى آية الإسراء والمعراج في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب ..

---

(١) سورة الإسراء – آية ١

والإسراء والمعراج رحلتان قدسيتان لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الأولى : من المسجد الحرام أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين إلى المسجد الأقصى وهي رحلة أرضية ..

الثانية : من المسجد الأقصى إلى السموات السبع إلى ما فوقها إلى مكان لم تنقل فيه قدم لبشر ولم يخفق فيه جناح لملك ، ولم يستطع جبريل أمين الوحي حياله إلا التقهقر والتراجع ، فلما سُئل قال (وما منا إلا له مقام معلوم) وهذه الرحلة رحلة سماوية .

كان الإسراء والمعراج قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وكان مكافأة ربانية لما لاقاه الحبيب صلى الله عليه وسلم من آلام وأحزان إذ كان بعد حصار دام ثلاث سنوات في شعب أبي طالب وما لاقاه أثناءه من جوع وحرمان وكان بعد فقد عمه الناصر الحميم وفقد أم المؤمنين خديجة وبعد خيبة الأمل في الطائف وما ناله من سفهائها ..

بعد هذه الآلام كافأ الحبيب حبيبه فرفعه إليه وقربه وأدناه ، وخلع عليه من حلل الرضا ما أنساه كل ما كان قد لاقاه من حزن وألم وتعب ..

وفي هذه الرحلة القدسية التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخوانه من الأنبياء والمرسلين وصلى بهم إماما في المسجد الأقصى ليكون برهانا من الله على أنه أرفعهم شأنا وأعلاهم مقاما صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

ثم يزيد الله تعالى في الفضل والتكريم فيرفعه إلى السموات العلى من فوق صخرة بيت المقدس في معراج إلهي صنع الله الذي أتقن كل شيء وهناك يستقبله الرسل والأنبياء ويرحبون بمقدمه

لقي صلى الله عليه وسلم في السماء الأولى آدم عليه السلام وفي الثانية يحي وعيسى ابنا الخالة عليهما السلام وفي الثالثة يوسف عليه السلام وفي الرابعة إدريس عليه السلام وفي الخامسة هارون عليه السلام وفي السادسة موسى عليه السلام وفي السماء السابعة لقي إبراهيم عليه السلام ..

وكان صلى الله عليه وسلم يلقى في كل سماء من الترحيب ما تقر به عينيه وينشرح له صدره وتطيب به نفسه .. وهو لذلك أهل ١

ثم يصل إلى سدرة المنتهى فيرى من مشاهد الكون وآيات الله الكبرى ما شاء الله أن يرى ، ويحظى بالمثول بين يدي ربه العلي الأعلى فيشاهد الأنوار الربانية وينال الرضوان الأكبر والفضل العظيم

وفي هذه الليلة المباركة تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر مولاه بفريضة الصلاة عماد الدين وأول ركن من أركان الإسلام بعد الإيمان بالله ورسوله ..

وقد تساءل البعض هل كان الإسراء بالروح والجسد أم كان بالروح فقط .. وجمهور الفقهاء اتفق على أن الإسراء كان بالروح والجسد .. فإذا كان الإنسان وهو مخلوق لله قد وصل اليوم بفضل ما وهبه الله من

---

(١) أبو بكر جابر الجزائري ، هذا الحبيب محمد يا محب ، ص ١١٢ – ١١٣

العقل وآتاه من العلم إلى ركوب متن الهواء واختراق طبقات السماء فإن الله سبحانه وتعالى وهو القادر القاهر فوق عباده الذي خلق السموات والأرض ولم يَعْيَ بخلقهن ، وبيده أمر الأجسام والأرواح جميعا وبيده مقاليد السموات والأرض لقادر على أن يجعل الإسراء بالجسم وذلك أهون عليه سبحانه من خلق السموات والأرض وأيسر من خلق الناس ..

ويقول رفاعة رافع الطهطاوي .. والصحيح أن الإسراء والمعراج كانا يقظة لا رؤيا والظاهر من قوله تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ...) أنه يقظة ففي قوله (بعبده) دليل على أن الإسراء كان بروحه وجسده لا بروحه فقط إذ العبد اسم للجسد والروح ١

- - -

يروي علماء السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصبح قصّ على قريش ما حدث ليلة الإسراء والمعراج فصدقه كل من آمن به إيمانا صحيحا .. أما ضعفاء الإيمان فقد سألوه وصف بيت المقدس بقصد الاختبار والتعجيز فوصفه لهم وسألوه عن أشياء دقيقة في المسجد لم يكن قد انتبه إليها فجلاه الله له ..

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوي ، محمد صلى الله عليه وسلم – نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز – دار الفكر والفن ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ٦٥ - ٦٦

فجعل ينظر إليه ويصفه لهم ويعد أبوابه وأقسامه فيطابق ما عندهم .. ولكن المعاندين لجوا في استنكارهم .. وكانت هذه الآية مثارا لعجبهم ومبعثا لسخريتهم ..

وقد ذهب بعضهم إلى أبي بكر الصديق فقالوا له إن صاحبك يزعم أنه ذهب إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة فقال أبو بكر : أوَ قَالَ ذلك ؟

قالوا : نعم .. قال : فأنا أشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق .. فأنا أصدقه بأبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء .. وفي هذه سمي أبو بكر " الصديق " ..

مواصلة الرسول الدعوة

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث سنين من أول نبوته يدعو للإسلام متخفيا ثم جهر بالدعوة في السنة الرابعة تلبية لنداء ربه فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين يوافي الموسم كل عام ، يتبع الحجاج في منازلهم ، وفي المواسم يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة فلا يجد أحد ينصره ولا يجيبه حتى أنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم فإذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة ..

وكان أبو لهب وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب فيردون على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبح الرد ويؤذونه ويقولون : أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك ١

وفي المدينة كان الأوس والخزرج يسمعون من حلفائهم اليهود أن نبيا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان سيخرج فيتبعونه ويقتلون معه المشركين المكذبين بيثرب

وكانت الأوس والخزرج يحجون البيت كما كانت العرب تحجه دون اليهود ..

فكان طعن اليهود في الوثنية وبشارتهم بالنبي المنتظر وتهديدهم بقتل المشركين المعادين للنبي .. كل ذلك كان من أسباب تشوق مشركي يثرب إلى معرفة هذا النبي ..

وقدم أهل يثرب إلى مكة في العام الحادي عشر من البعثة حيث جرت بيعة العقبة الأولى ثم في العام الثاني عشر حيث جرت بيعة العقبة الثانية ثم .. كانت الهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة)

وتعالوا نعيش مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في بيعتي العقبة ثم .. الهجرة إلى المدينة

---

(١) قيم الجوزية عزاد المعاد في هدي خير العباد ، دار الريان للتراث ، ج ٢ ، ص ٣٧

بيعة العقبة الأولى

أثناء عرض النبي صلى الله عليه وسلم نفسه على قبائل العرب في المواسم لقيه نفر من الخزرج أراد الله بهم خيرا .. فلما طلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجلسوا ليكلمهم استجابوا له ، فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن وكان هؤلاء النفر يعلمون من اليهود المجاورين لهم في المدينة أن نبيا قد أظلّ زمانه وهو مبعوث الآن .. فلما أراد الله تعالى إظهار دينه وإعزاز نبيه صلى الله عليه وسلم وإنجاز وعده له جعل هؤلاء النفر يستجيبون لدعوته صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم : يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقكم إليه .. فصدقوه ، وقبلوا منه ما عرضه عليهم من الإسلام ، وانقلبوا إلى قومهم يدعونهم ويبشرونهم ، وذكروا لهم ما كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا فلاقوه بالعقبة .. وهي العقبة الأولى .. فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

بيعة العقبة الثانية

لما انتشر الإسلام في المدينة – خاصة أن نفرا من أهل مكة قد هاجروا إليها وعاشوا في طمأنينة وسلام بين إخوانهم المسلمين الجدد – قال الأنصار إلى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من

إخواننا يكابدون المشقة والأذى فأرسلوا له في موسم الحج سبعين رجلا وتواعدوا شعب العقبة وبايعوه بيعة العقبة الثانية على السمع والطاعة ، وأن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وكان ممن حضر هذه البيعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه العباس بن عبد المطلب ، وكانت هذه البيعة تسمى بيعة الحرب وكانت في العام الثاني عشر من البعثة

وكان العباس يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له .. فلما جلس كان أول متكلم فبين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في منعة من قومه بني هاشم ، ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة ، ولذلك فإن العباس يريد أن يتأكد من حماية الأنصار له وإلا فليدعوه .. فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط .. فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام .. ثم قال : " أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " ..

قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟

قال صلى الله عليه وسلم : " الجنة " ١

---

(١) الإمام جلال الدين محمد بن أحمد المحلى والإمام جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي ، تفسير الجلالين ، دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ج ١ ، ص ٢١٤

فأخذ البراء بن معرور – وهو سيد قومه وكبيرهم – بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر ..

وبعد البيعة .. طلب الرسول صلى الله عليه وسلم منهم الانصراف إلى رحالهم .. وهكذا عبرت البيعة بسلام وعاد الأنصار إلى المدينة ينتظرون هجرة النبي إليهم بتلهف كبير ١

المؤامرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول الله تعالى ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ ٢

نكل المشركون بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطروهم أن يهاجروا أكثر من مرة إلى الحبشة ، بلاد غير بلادهم وناس لا يدينون بدينهم ، وغاظ المشركين أن هؤلاء المهاجرين قد أفلتوا من أيديهم فأنحوا على من بقي في مكة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بألوان الإيذاء وصنوف الاضطهاد يستشفون منهم ويطفئون بتعذيبهم ما تضطرم به صدورهم من نيران الحنق والغيظ ..

وهنا أشار النبي صلى الله عليه وسلم على هؤلاء المؤمنين المضطهدين أن يخرجوا متسللين إلى المدينة والهجرة إليها واللحاق بإخوانهم من

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي ، الهجرة النبوية ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، ص ٨١ – ٨٣

(٢) سورة الأنفال – آية ٣٠

الأنصار .. فخرجوا لم يبق منهم بمكة إلا من حبسته حاجة أو تنبه له المشركون فحبسوه من الخروج بالقهر والغلبة ..

ولقد هم أبو بكر بالرحيل أيضا فأشار عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بالبقاء معه حتى يقضي الله أمره ..

خرجوا وتركوا مكة لأهلها المشركين من أقربائهم وغير أقربائهم .. فماذا كان أثر هذا الخروج المستخفي في نفوس أهل مكة ؟

هل ينتهي الأمر فيما بينهم وبين المؤمنين ؟ كيف ومحمد صاحب الدعوة ما يزال باقيا في مكة مستمسكا بعقيدته معتصما بيقينه يعبد الله ويدعو إلى دين الله ..

إذن ماذا يصنعون معه ؟

إنهم قد أعيتهم معه جميع الحيل وقد مكثوا سنين طويلة يعالجون أمره ، ويحاولون إغراءه واغواؤه بكل ما يفتتن به الرجال وأشباه الرجال من سلطان ومال فلم يفلحوا ، فماذا هم فاعلون ؟ قالوا إنه لابد لهذا الأمر من آخر ، ولا يصلح فيه إلا العمل الحاسم والقضاء الفاصل ..

تداعوا في دار الندوة – وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيها – تشاوروا وقلبوا وجوه الرأي

(ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)

إن المكر له وسائل وغايات ، وسيلته هي التدبير بخفاء ، وغايته هي إيذاء إنسان قوي لا تقدر على مواجهته مواجهة مباشرة ، فتحتال على هذه المواجهة حتى تتمكن منه وهو غير متنبه لك ..

وقد كان هناك ثلاثة اقتراحات إما التثبيت وهو التقيد أو السجن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما إخراجه من مكة ويمنعونه من دخولها .
ورفض المجتمعون الرأيين .. وهنا انبرى أبو جهل فقال والله إن لي فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد .. قالوا وما هو يا أبا الحكم ؟ قال عدو الله : أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابا جليدا نسيبا وسيطا فتيا ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا فلن يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا عند ذلك يرضون بالدية فنؤديها لهم فصاح الشيطان الجالس بينهم القول ما قال أبو الحكم ، وتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون أمرهم على هذا الرأي يقول ابن عباس : فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه .. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبي طالب أن يبيت في فراشه ويتغطى ببردته
وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيته بينما ألقى الله النوم على فتيان قريش الواقفين بسيوفهم على بابه .. خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك بحفنة من التراب ورماها في وجه فتيان قريش وقال (شاهت الوجوه) وأخذ يتلو قول الحق سبحانه وتعالى

﴿ يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ ١

وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم تحفظه عناية الله إلى المدينة المنور بصحبة الصديق رضي الله عنه ..

- - -

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة

توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دار صاحبه الصديق وخرجا من هناك متجهين إلى المدينة .. وفي الطريق التجآ إلى غار ثور واختبآ داخله ..

وجاء الكفار ووقفوا عند مدخل الغار .. وسيطر الخوف على قلب أبي بكر خشية أن يقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أيدي الكفار وقال لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا .. وكان أبو بكر بذلك يقرر واقعا .. فالكفار واقفون على باب الغار والنبي صلى الله عليه وسلم في داخله ، ونظرة واحدة من الكفار إلى داخل الغار تكشف الأمر كله .

---

(١) سورة يس – آية ١ – ٩

فماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ رفع الأمر إلى الله وقال : " ما ظنك باثنين الله ثالثهما " .. وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة ﴿ **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ ١

وذلك لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يحفظنا فنحن لا نحفظ أنفسنا ، وهكذا جاءت هذه الآية لتبين لنا كيف أن الله سبحانه وتعالى إذا كان معنا كانت لنا الغلبة وأننا يجب أن نستعين بالله في جميع الأمور ٢

وصرف الله مشركي مكة عن الغار بما أكرم به رسوله من عجائب ومعجزات .. حمامات تبيض ، وشجرة تمتد فروعها وأغصانها .. وعناكيب تتشابك خيوطها ويتكاثف نسيجها .. كل ذلك يجدونه في مدخل الغار ، أعلاه وأسفله حتى ليحلف أحدهم – وهم يتآمرون عند ذلك الغار – أن نسيج ذلك العنكبوت لأقدم من ميلاد محمد ..

انصرفوا حينئذ عن الغار .. يتتبعون الطرق ويرسلون عيونهم في جميع المسالك .. ويبعثون النداء في كل واد .. من يأتي بمحمد حيا أو ميتا فله مائة ناقة ..

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه في الغار ثلاثة أيام كانا يتغذيان فيها بلبن شاة كان يغدو بها عليهما ويروح عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه كما كان يوافيهما بأخبار أهل مكة وما يصنعون ، ثم قدم عليهما ابن أريقط بالراحلتين .. وأتتهما أسماء بنت

---

(١) سورة التوبة – آية ٤٠
(٢) الشيخ محمد متولي الشعراوي ، الهجرة النبوية ، ص ١١٢ - ١١٣

أبـي بكـر بسـفرتهما ونسيت أن تجعـل لهمـا عصـاما .. ولمـا أرادت أن تعلق السفرة لم تجد لها عصاما فحلت نطاقها وجعلته عصاما ثم علقت السفرة به ، فكان يقال لها ذات النطاقين لذلك .

وهكذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة بعد أن مكث بها منذ البعثة ثلاثة عشر عاما لقي فيها من عنت المشركين وتعنتهم ومن آذاهم ، وتكذيبهم وافترائهم ما لا يحتمله إلا أولو العزم من الرسل ١

حديث أم معبد

في طريق الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة هو وأبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ودليلهم عبد الله بن أريقط الليثي مروا بخيمة أم معبد الخزاعية ، وكانت امرأة كبيرة تسقي وتطعم فسألوها تمرا ولحما يشترون فلم يصيبوا عندها شيئًا من ذلك فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة في الخيمة فقال ما هذه الشاة يا أم معبد ؟

قالت : هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم ..

فقال صلى الله عليه وسلم : " هل بها من لبن ؟ "

قالت : هي أجهد من ذلك ..

قال صلى الله عليه وسلم : " هل تأذنين لي أن أحلبها ؟ "

قالت : نعم ، بأبي أنت وأمي إن رأيت بها حليبا

---

(١) الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، الهجرة ١٤٠٥هـ ، ص ١٢ ــ ١٥

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة فمسح ضرعها وذكر اسم الله وقال :

اللهم بارك لنا في شاتها .. فدرت ، واجترت .. فدعا بإناء فحلب فيه ثجاً حتى غلبه الثمال فسقاها فشربت حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا وشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم آخرهم وقال : " ساقي القوم آخرهم شربا " فشربوا جميعا حتى أراضوا ثم حلب فيه ثانيا عودا على بدء فتركه عندها حتى ارتحلوا عنها ..

وجاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزا عجافا هزلى ، فلما رأى اللبن عجب فقال : من أين لك هذه والشاة بعيدة عن المرعى ولا حلوبة في البيت .. قالت : لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت .. والله إني لأراه صاحب قريش الذي يُطلب ..

فقال زوجها : صفيه لي يا أم معبد

قالت : رأيت رجلا ظاهر الوضاءة ، مشرق الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة ، ولم تزر به صعلة ، وسيم ، قسيم ، في عينيه دعج شديد (سواد العين) وفي أشفاره وطف ، وفي صوته صحل (بحة) ، أزرج أقرن (دقة الحاجبين وحسنهما) ، شديد سواد الشعر ، في عنقه سطع (طول) ، وفي لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ولا هذر (ليس بقليل ولا بكثير) .. أجهر الناس وأجملهم من بعيد ، وأحلاهم وأحسنهم من قريب ، ربعة لا تشنؤه من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غض

بين غضين ، فهو أنظر أصحابه منظرا ، وأحسنهم قدرا ، له رفقاء يحفون به ، إذا قال استمعوا لقوله وإذا أمر تبادروا إلى أمره ، مخدوم محشود ، لا عابس الوجه ولا فيه أثر هرم ..

قال : هذا والله صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر ، ولو كنت وافقته لالتمست أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا ..

قال عبد الملك بن مروان : فبلغنا أن أم معبد هاجرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأسلمت

وصول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة

ويمضي الموكب الوضاء .. وينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف فيقيم أياما يؤسس فيها مسجد قباء .. ثم يرتحل إلى المدينة ويدخلها يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول وكان عمره يومها ثلاث وخمسين عاما [1]

وقد جاء في كتب السيرة أن زعماء الأنصار تطلعوا إلى استضافة الرسول صلى الله عليه وسلم فكلما مرّ بأحدهم دعاه للنزول عنده فكان يقول لهم : " دعوا الناقة فإنها مأمورة " فبركت على باب بيت أبي أيوب الأنصاري فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في داره حتى بُني له مسكنه الخاص .

ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم رأى اليهود تصوم يوم عاشوراء (العاشر من المحرم) فقال صلى الله عليه وسلم : " ما هذا ؟ " قالوا :

---

(١) الإمام جمال الدين يوسف المقدسي (ابن المبرد) ، ص ١٩

هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى ..

فقال صلى الله عليه وسلم : " فأنا أحق بموسى منكم ، فصامه وأمر بصيامه " [1]

وقد جاء بيان فضل صيام يوم عاشوراء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم :

" من صام يوم عرفة غفر له سنة أمامه وسنة خلفه ، ومن صام عاشوراء غفر له سنة " الآثار المرفوعة ج ١ ، ص ٩٤

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في منزل أبي أيوب زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه وزوجته سودة بنت زمعة ، وأسامة بن زيد ، وأم أيمن ، أما زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يمكنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج ، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر ومنهم عائشة فنزلوا في بيت حارثة بن النعمان [2]

ونظم النبي صلى الله عليه وسلم العلاقات بين سكان المدينة ، وكتب في ذلك كتابا أوردته المصادر التاريخية ، واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة وتحديد

(١) صحيح البخاري ، ج ٢ ، ص ٧٠٤
(٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨

الحقـوق والواجـبات ، وقـد سُـميت فـي المصـادر القديمـة بالكـتاب والصحيفة ، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة الدستور والوثيقة ١

بناء المسجد النبوي الشريف وتغيير القبلة

كـان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يصلي حيث أدركته الصلاة ثم أمر ببناء المسجد في أرض كان فيها نخل لغلامين يتيمين من بني النجار ، وقد اشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام المسلمون بتسويتها وقطع نخيلها وصفوا الحجارة في قبلة المسجد ، وما أعظم سرورهم وهم يعملون في بنائه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل معهم وهم يرتجزون ..

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

وكان يصلي إلى قبلة بيت المقدس ويحب أن يُصرف إلى الكعبة ..

وقال لجبريل وددت أن يصرف الله وجهي عن قبلة اليهود فقال : إنما أنا عبد فادع ربك واسأله ، فجعل يقلب وجهه في السماء يرجو ذلك حتى أنزل الله عليه (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) وذلك بعد ستة عشر شهرا من مقدمه المدينة قبل غزوة بدر بشهرين .

وجعل الرسول للمسجد ثلاثة أبواب : باب في مؤخره وبابا يقال له باب الرحمة ، والباب الذي يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل عمده الجذوع وسقفه بالجريد ، وبنى إلى جانبه بيوت أزواجه

---

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي ، الهجرة النبوية ، ص ١٣٥

باللبن وسقفها بالجريد والجذوع ، فلما فرغ من البناء بنى بعائشة في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد ، وهو مكان حجرته اليوم ، وجعل لسودة بنت زمعة بيتا آخر ١

خبر الآذان

بعد أن استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وبنى مسجده فيها أصبح المسلمون يجتمعون فيه للصلاة ، وكانوا يأتون وقت الصلاة بدون إعلام فيصلون وينصرفون .. ثم رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ينبغي أن يكون هناك ما يعلم به المسلمون دخول وقت الصلاة وقرب إقامتها ، فاستشار أصحابه وأشاروا عليه بالبوق فكرهه لاستعمال اليهود له ، وأشاروا عليه بالناقوس فكرهه أيضا لاستعمال النصارى له .. وانصرفوا ولم يتفقوا على شئ ..

فنام عبد الله بن زيد الأنصاري فرأى أن رجلا عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده فقال له : يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟ فقال : وما تصنع به ؟ قلت : ندعوا به إلى الصلاة ، قال : لا ، ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، حي على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فأخبرها الرسول صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم :

---

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٢٤٠

" إنها رؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فإنه أندى صوتا منك "

فلما أذن بلال سمعه عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج إلى رسول الله وهو يجر رداءه ويقول : يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى .. فقال الحبيب فلله الحمد وزاد بلال في أذان الفجر (الصلاة خير من النوم) فأقر عليها .. وعلم رسول الله بلالا الإقامة فقال له : " إذا أقمت الصلاة تقول : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله [1]

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

قال الله تعالى ﴿ **وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾ [2]

ألف الله بين قلوب المسلمين فأصبح الإسلام أقوى رابطة تربط بينهم فأصبحت أخوة الدين أقوى من أخوة النسب ، وحين تتآلف القلوب فهذا أقوى رباط لأن كل عمل يقوم به الإنسان إنما ينشأ عن عقيدة في القلب فالقلب هو ينبوع لكل المشاعر ، ولذلك نرى الإنسان يضحي بكل شئ في سبيل ما آمن به واعتقده .. والتآلف بين القلوب هو جماع التواد

---

(١) أبو بكر جابر الجزائري ، هذا الحبيب محمد يا محب ، ص ١٥٠ – ١٥١
(٢) سورة الأنفال – آية ٦٣

والمساندة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب " رواه البخاري ..

ولم تكن المسألة في تأليف القلوب مسألة احتياج إلى مال ، لأن المال لا يمكن أن يعطي الحب الحقيقي .. والمؤمنون الذين ألف الله بين قلوبهم لم يكن يهمهم المال بقدر ما يهمهم نصرة دين الله الذي آمنوا به ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي صدقوه ..

والرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كما يشاء لذا كان أكثر دعائه صلى الله عليه وسلم : " يا مقلب القلوب ثبّت قلبي على دينك " رواه الترمذي

فكان من أول الأعمال التي قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد استقراره بالمدينة أن آخى بين المهاجرين والأنصار حتى أن المهاجر كان يرث الأنصاري بالإخوة التي آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم إلى أن نزلت آية المواريث فأبطلت ذلك .. وكان من الفوائد العظيمة لهذه الأخوة الإيمانية إزالة الوحشة والغربة عن المهاجرين نتيجة مفارقتهم الأهل والعشيرة ..

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام أفضل "

رواه البخاري

جهاد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة

كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة جهادا كلها .. فهو يجاهد المشركين في قريش والمشركين من العرب .. ويجاهد اليهود في المدينة وخارجها .. ثم يجاهد المنافقين الذين يظهرون أنهم له أولياء وليسوا في ولايته في شئ وإنما هم أولياء أعدائه من المشركين واليهود وهو يجاهد المنافقين بالصبر على ما يقترفون في ذاته وفي ذات المؤمنين ، وفي ذات الله عز وجل من السيئات والآثار .. وبالاحتياط لمكرهم وكيدهم وإغرائهم به وتأليبهم عليه ، وهذا الجهاد المتصل المختلف كان جديرا أن يستغرق حياة النبي كلها وأن يشغله عن كل شئ غيره .. ولكنه لم يستغرق من حياة النبي إلا بعضها بل أقلها وأنه أنفق سائر حياته ناشرا لدين الله معلما للمؤمنين والمسلمين مبينا لهم حقائق دينهم ومرشدا لهم إلى ما يجب عليهم وما لا ينبغي لهم في مسيرتهم من خطير الأمر ويسيره ..

غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم

كانت غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم كلها بعد الهجرة في مدة عشر سنين فقد غزا صلى الله عليه وسلم سبعا وعشرين غزوة قاتل في تسع منها وهي :

بدر ، أحد ، الخندق ، قريظة ، بني المصطلق(المريسع) ، خيبر ، فتح مكة ، حنين ، الطائف .. ١

وقد جُرح النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد .. وتحصن في غزوة الأحزاب بالخندق الذي أشار به عليه سلمان الفارسي ونزلت الملائكة يوم الخندق (الأحزاب) فزلزلت المشركين وهزمتهم ففروا هاربين ..

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوتين في رمضان ..

قال عمر بن الخطاب غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان غزوتي بدر ويوم الفتح (فتح مكة) فأفطرنا فيهما

- - -

وسنحاول في الصفحات التالية إلقاء الضوء على الغزوات التسع التي قاتل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم داعين الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا الرشد والتوفيق إنه نعم المولى ونعم النصير ..

غزوة بدر

تعتبر غزوة بدر أهم وأعظم معارك الإسلام ضد الشرك .. ففيها التقى الظلام بالنور والكفر بالإيمان والباطل بالحق ..

وقعت هذه الغزوة في السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة .. ونصر الله المسلمين نصرا عظيما رغم قلة عددهم فقد كانوا

---

(١) الإمام ابن الجوزي ، صفة الصفوة ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، مج ١ ،ط١ ١٤١٩ ـ ١٩٩٩ ، ج ١ ، ص ٧٥

ثلثمائة مقاتل من المهاجرين والأنصار أوأكثر قليلا بينما بلغ جيش المشركين ما يفوق الألف مقاتل بعتادهم وخيولهم ..

- - -

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام في عير لقريش فيها أموال وتجارة من تجارتهم فندب المسلمين لاعتراضها وقال لهم :

" هذه عير قريش فيها أموالكم فاخرجوا إليها لعل الله يرزقكم ما تحمله من بضائع وسلع " .. ذلك أن المسلمين قد تركوا أموالهم بمكة وفروا بأنفسهم مهاجرين فصادرتها قريش منهم ..

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار فعلم أن محمدا قد استنفر أصحابه له ولعيره فحذر عند ذلك فبعث بأحد رجاله إلى مكة ليستنفر قريشا إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لهم في أصحابه ..

فلما وصل قريش الخبر تجهزوا سراعا .. وكانوا بين رجلين إما خارج وإما باعث مكانه رجلا ، ولم يتخلف من أشراف قريش إلا أبا لهب بن عبد المطلب ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي ..

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر عن قريش بمسيرهم ، فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش .. فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض كما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك

كما قالت بنو إسرائيل لموسى **﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾** ١

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الضماء لجادلنا معك من دونه حتى تبلغه .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له ..

ثم قال صلى الله عليه وسلم : " أشيروا علي أيها الناس " وإنما يريد الأنصار

ذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليه نصره إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ، فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

قال صلى الله عليه وسلم : " أجل "

قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن

---

(١) سورة المائدة – آية ٢٤

تلقى بنا عدونا غدا .. إننا لصُبر في الحرب ، صُدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينيك ، فسر بنا على بركة الله ..

فسُرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقول سعد ثم قال صلى الله عليه وسلم :

" سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم "

وخرج المسلمون ونزلوا في مكان قريب من بدر ..

قال الحباب بن المنذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل منزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : " هو الرأي والحرب والمكيدة

فقال الحباب : فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنا ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ..

فقال صلى الله عليه وسلم : " لقد أشرت بالرأي "

فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزلوا عليه .. وبنوا حوضا فملئ ماء فقذفوا فيه الآنية ..

وقبل أن يلتقي الجيشان كان أبي سفيان قد نجا بالعير ..

بناء العريش للرسول صلى الله عليه وسلم

وقد رُوي أن سعد بن معاذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم " يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه .. فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له بخير .. ثم بُني لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش فكان فيه ..

وأقبلت قريش .. فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أهلكهم الغداة "

التقاء الفريقين

وكان ذلك يوم الجمعة صبيحة سبع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة ..

الرسول يناشد ربه النصر

نظم رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ورجع إلى العريش فدخله ومعه فيه أبو بكر الصديق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر ويقول : " اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد .."

وأبو بكر يقول : يا نبي الله إن الله منجز لك ما وعدك ..

وقد خفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو في العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله .. هذا جبريل آخذ بعنان

فرس يقوده ، على ثناياه النقع .. لقد أنزل الله عز وجل مددا من الملائكة عونا للمسلمين المجاهدين يثبتونهم ويلقون في قلوب الذين كفروا الرعب ..

أول شهيد من المسلمين

رُمي مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقُتل فكان أول قتيل من المسلمين ثم رُمي حارثة بن سراقة أحد بني عدي بن النجار وهو يشرب من الحوض بسهم فأصاب نحره فقتل ..

تحريض المسلمين على القتال

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرضهم وقال : " والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجلا فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة " وكان في يد عُمير بن الحمام تمرات يأكلهن فقال بخ بخ [1]

أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ، ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه يقاتل القوم حتى قُتل ..

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حفنة من الحصباء فاستقبل قريشا بها ثم قال شاهت الوجوه ثم نفحهم بها ، وأمر أصحابه فقال شدوا .. وكان النصر للمسلمين ..

---

(١) كلمة تقال في حالة الإعجاب

وقد رُوي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم بدر إني قد عرفت أن رجالا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها ولا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها ..

قتل أمية بن خلف وأبا جهل (عمرو بن هشام)

وكان مع المشركين في المعركة أمية بن خلف وابنه ، وكان هو الذي يعذب بلالا بمكة فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت فيضجعه على ظهره ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول : لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد .. فيقول بلال : أحد أحد ..

فلما رأى بلال أمية بن خلف قال : رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجا ، قال أمية : أتسمع يا ابن السوداء .. قال : لا نجوت إن نجا ، ثم صرخ بأعلى صوته يا أنصار الله ، رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا .. وأحاطوا بأمية وابنه فقتلوهما ..

ووجد عبد الله بن مسعود أبا جهل بآخر رمق فوضع رجله على عنقه وقال له : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟

قال : وبما أخزاني فلست إلا رجلا قتله قومه .. ثم قال : أخبرني لمن الدائرة اليوم

قال ابن مسعود : لله ولرسوله .. قال أبو جهل : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يا رويعي الغنم .. فرد عليه : لقد أخزاك الله يا عدو الله .. ثم

اجتز رأسه وجاء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هذا رأس عدو الله أبي جهل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا إله إلا الله " وقتل من مشركي مكة نفر كثير وناحت قريش على قتلاهم ..

الرجوع إلى المدينة

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين .. ونزل قوله تعالى ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون** ﴾ ١

ونزلت سورة الأنفال تشرح بعض مواقف هذه الغزوة وكيفية توزيع الغنائم ..

غزوة أحد

زحفت قريش برجالها ونسائها في شوال من السنة الثالثة من الهجرة وبكل من قدرت على تأليبه والإتيان به ، وسارت بقيادة أبي سفيان بن حرب زعيمها - بعد هلاك أبي جهل – إلى المدينة ، وذلك للانتقام من قتلاهم في بدر ..

ودعا جبير بن مطعم غلاما له حبشيا يقال له وحشي يقذف بحربة له قلما يخطئ بها ، فقال له أخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق ..

---

(١) سورة آل عمران – آية ١٢٣

وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم الخبر فاستشار أصحابه في الخروج إلى المشركين لقتالهم خارج المدينة أو البقاء في المدينة وقتالهم داخلها وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها فإن دخلوها قاتلهم المسلمون ، ووافق على هذا الرأي عبد الله بن أُبي فبادر جماعة من الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر وأشاروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج وألحوا عليه في ذلك .. وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأي أصحابه ، وخرج لملاقاة قريش ..

وساروا حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عنهم عبد الله ابن أبي بثلث الناس ، وكان رأيه – لعنه الله – عدم الخروج مثل رأي النبي صلى الله عليه وسلم فلذا قال : أطاعهم وعصاني ، لا ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟!

وحاول أحد الصحابة أن يثنيهم عن الرجوع وألا يخذلوا قومهم ونبيهم فاستعصموا وأبوا إلا الانصراف .. فقال صلى الله عليه وسلم :

" أبعَدَكم الله – أعداء الله – فسيُغني الله عنكم نبيه "

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين حتى نزلوا بالشعب من أحد ، وجعل ظهره بجبل أحد .. واستعرض الرسول الجيش ونهى الناس عن القتال حتى يأمرهم بذلك .. واستعمل على الرماة عبد الله بن جبير وأمره وأصحابه أن يلزموا مراكزهم وألا يفارقوها ولو رأوا الطير تتخطف العسكر ، وكانوا خلف الجيش وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم ..

وشدد على ألا يبرح الرماة أماكنهم مهما يكن من أمر فليظلوا في أماكنهم حتى يتلقوا أمرا آخر من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ممن سيخلفه إن هو استشهد في المعركة ، وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواء إلى مصعب بن عمير ..

ودارت رحى المعركة واستعرت نارها وتأجج لهيبها .. وكان حمزة بن عبد المطلب فيها أسدا يهدد الرجال هدا ، وكان وراءه وحشي غلام جبير بن مطعم يترصده حتى حانت له الفرصة فدفع بحربته إلى حمزة فأردته قتيلا .. قُتل حمزة الجسور النبيل الرائع .. وهنا أخذ وحشي حربته وتنحى إلى المعسكر بعد أن حقق ما أراد ولم تكن له حاجة في غيره .. ولما قدم مكة أعتقه جبير بن مطعم ..

وقُتل مصعب بن عمير حامل اللواء فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب .. وتقدم علي باللواء وهو يقول أنا أبو القصيم فناداه أبو سعد بن أبي طلحة – وهو صاحب لواء المشركين – قائلا : هل لك يا أبا القصيم في البراز من حاجة ؟

قال علي : نعم .. فبرزا بين الصفين فاختلفا ضربتين .. فضربه علي فصرعه ..

والتقى حنظلة بن أبي عامر الأنصاري وأبو سفيان فلما استعلاه حنظلة رآه شداد بن الأسود وقد علا أبا سفيان فضربه شداد فقتله ..

فقال صلى الله عليه وسلم : " إن صاحبكم – يعني حنظلة – لتُغسله الملائكة ، سلوا امرأته ما شأنه ؟ " فسُئلت زوجته عنه فقالت : خرج

وهو جنب حين سمع صوت الجهاد .. فقال صلى الله عليه وسلم لذلك غسلته الملائكة ١

وكان النصر للمسلمين – وانهزم الكفار وولوا مدبرين – فلما رأى الرماة ذلك تركوا مراكزهم الذي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظها ظنا منهم أن المعركة قد انتهت .. وقالوا : يا قوم .. الغنيمة .. الغنيمة فذكرهم أميرهم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسمعوا وظنوا أن ليس للمشركين رجعة فذهبوا في طلب الغنيمة وأخلوا الثغر . وكر فرسان المشركين فوجدوا الثغر خاليا قد خلا من الرماة فجازوا منه وتمكنوا حتى أقبل آخرهم فأحاطوا بالمسلمين ، فأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة .. وخلص المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجرحوا وجهه وكسروا رباعيته ورموه بالحجارة حتى سقط في حفرة من الحفر ، فأخذ علي بيده واحتضنه طلحة بن عبيد الله ، ونشبت حلقتين من حلق المغفر في وجهه الطاهر ، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعض عليهما حتى سقطت ثنتياه من شدة غوصهما في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وسال الدم على وجهه الشريف وجعل يمسح الدم وهو يقول : " كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم " فأنزل الله عز وجل في ذلك قوله ﴿ **ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** ﴾ ٢

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ، ص ١٧
(٢) سورة آل عمران – آية ١٢٨

ويصرخ الشيطان قائلا : إن محمد قد قُتل ..

وألقى رجال سلاحهم من أيديهم وبقوا واقفين حيارى مدهوشين ..

منهم عمر وطلحة .. فأتاهم أنس بن النضير – عم أنس بن مالك – فقال لهم ما يحبسكم ؟ قالوا : قُتل محمد صلى الله عليه وسلم .. فقال : فماذا تصنعون بالحياة بعد ؟ موتوا على ما مات عليه ثم استقبل المشركين فقاتل حتى قُتل فوجد به سبعين ضربة وطعنة ولم يعرفه إلا أخته عرفته ببنانه ..

وكان أول من عرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حي لم يُقتل كعب بن مالك فنادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله لم يُقتل .. وثاب إليه رجال وقاتلوا دونه حتى جاء أبي بن خلف يصرخ ى نجوت إن نجا – أي محمد صلى الله عليه وسلم – وهو يتقدم نحو نبي الله صلى الله عليه وسلم ..

فتناول الرسول صلى الله عليه وسلم حربة من يد أحد أصحابه وطعنه بها فخار كما يخور الثور ، ومات بها في طريقه إلى مكة ..

وارتفع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصخرة حيث يوجد بعض أصحابه وجاء أبو سفيان يحاول الوصول إلى أصحاب الصخرة في سفح أحد فردوه خاسئا خائبا ..

وانتهت المعركة وكانت درسا قاسيا للمسلمين ومثّلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان بالقتلى وبقرت بطر حمزة ولاكت كبده ..

وانصرف أبو سفيان ومن معه عائدين إلى مكة فرّوا مدبرين حرصا على نصرهم الهزيل منذرين بأنهم سيهاجمون المسلمين في مثل هذه الأيام من العام القادم ..

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي في أثرهم وقال له انظر فإن جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل فإنهم يريدون المدينة ، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأناجزنهم ..

فخرج علي في أثرهم فوجدهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ، فرجع يصيح ما استطاع أن يكتم الخبر من شدة الفرح

ونظر الرسول صلى الله عليه وسلم في القتلى فرأى من بينهم عمه حمزة بن عبد المطلب وقد بقر بطنه عن كبده ومُثل به فقال صلى الله عليه وسلم حين رآه : " لولا أن تحزن صفية أو تكون سنة لتركته حتى يكون في أجواف السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرني الله على قريش لأمثلن بثلاثين رجلا منهم "

وقال المسلمون لمثلن بهم .. فأنزل الله تعالى ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ ١

فعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه ، ونهى الرسول عن المثلة ..

---

(١) سورة النحل – آية ١٢٦

وهمّ رجال بحمل قتلاهم ليدفنوهم بالمدينة فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدفنهم حيث صُرعوا ، وأمر أن يدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد ، وأن يقدم إلى القبلة أكثرهم قرآنا .. وصلى عليهم ..

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه إلى المدينة فدخلوها مساء يوم المعركة ..

وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم يدبر شئون المدينة بعد المحنة ..

قال محمد بن كعب القرطبي : لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد غزوة أحد وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض من أين أصابنا هذا ، وقد وعدنا الله النصر !! فنزل قوله تعالى ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون . منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين** ﴾ ١ تحسونهم : تقتلونهم

وذلك أنهم قتلوا صاحب لواء المشركين وسبعة نفر منهم بعده على اللواء ، وكان الظفر ابتداء للمسلمين غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة وترك بعض الرماة أيضا مركزهم طلبا للغنيمة فكان ذلك سبب الهزيمة ..

وعن عروة بن الزبير قال : وكان الله عز وجل وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين .. وكان قد فعل ،

---

(١) سورة آل عمران – آية ١٥٢

فلما عصوا أمر الرسول وتركوا مصافهم وترك الرماة عهد الرسول ألا يبرحوا من منازلهم وأرادوا الدنيا رفع الله عنهم مدد الملائكة فصدق الله وعده وأراهم الفتح فلما عصوا أي خالفوا أمر الرسول في الثبوت أعقبهم البلاء .. ١

- - -

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عقب غزوة أحد : لو دعوت عليهم ؟

قال صلى الله عليه وسلم : " إني لم أبعث لعانا ولكني بعثت داعيا ورحمة ، اللهم ارحمهم "

وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عُرف بالحلم والعفو ، ولم يكن هذا أمرا فطريا فحسب ، بل مجاهدة لإنفاذ توجيهات الوحي الإلهي له (واصبر على ما أصابك) .. (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) ..

غزوة الأحزاب (الخندق)

كانت غزوة الخندق في شهر شوال سنة خمس من الهجرة.. ونزلت في أحداثها سبع عشرة آية من سورة الأحزاب ..

خرج نفر من اليهود حتى قدموا مكة فدعوا قريش إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعدوهم بأنهم سيكونون معهم ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستأصلوه .. ووجدوا قريشا مستعدة لذلك من

---

(١) تفسير القرطبي ، ج ٤ ، ص ٢٣٣ – ٢٣٧

أجل الهزائم التي لحقتها ، وضللها اليهود إذ قالوا لهم إنهم على حق وأن دينهم خير من دين محمد ..

كما ذهبت اليهود – لعنهم الله – إلى بعض القبائل فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروهم بأنهم وقريش سيكونون معهم ..

وخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب واليهود ومن استجاب لهم من القبائل ..

فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أجمع عليه الكفار في حربه ، دَعَى الناس وأخبرهم بخبر عدوهم ، وشاورهم في الأمر ، فأشار عليه سلمان الفارسي بالخندق يُحفر حول جبل سلع تكون ظهور المسلمين إلى جبل سلع ووجوههم إلى الخندق فيمنعون كل مقتحم للخندق يريد الوصول إليهم ، واجتمعت الكلمة على حفر الخندق وأخذ المسلمون يحفرون ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يحفر معهم .

وتنافس الناس يومها في سلمان الفارسي فقال المهاجرون سلمان منا ، وقالت الأنصار هو منا ونحن آخرته (أي هم آخر من نزل عليهم بعد طوافه في بلاد الله) فقال صلى الله عليه وسلم : " سلمان منا أهل البيت " ١

(١) اقرأ سيرة سلمان الفارسي وطوافه في بلاد الله بحثا عن الحقيقة في كتابنا (مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم) ، ص ٢٧١ - ٢٨٤

آيات ظهرت أثناء حفر الخندق

وتجلت أثناء حفر الخندق آيات النبوة المحمدية .. ذلك أن كُدْية اشتدت علهم أثناء الحفر فشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بإناء من ماء ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية فيقول من حضرها ، فوالذي بعثه بالحق نبيا لانهالت حتى تفتت

وآية أخرى من بركات النبوة ، أن إحدى سيدات المدينة بعثت بابنتها بحفنة من تمر إلى أبيها وخالها عبد الله بن رواحة فقابلت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ منها التمر ثم أمر بثوب فبسط له ثم دحا بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب .. دعا أهل الخندق إلى الغداء فاجتمعوا عليه وجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه وأنه ليسقط من أطراف الثوب ..

وقال جابر بن عبد الله عملنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق .. وكانت عندي شاه غير كاملة الدسم ، فقلت والله لوضعناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرت امرأتي فطحنت لنا شيئا من شعير فصنعت لنا منه خبزا ، وذبحت لنا تلك الشاه فشويناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. فلما أمسينا وأراد رسول الله الانصراف عن الخندق قلت يا رسول الله إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئا من خبز الشعير فأحب أن تنصرف معي إلى منزلي – وأريد أن ينصرف معي رسول الله وحده – فلما قلت له ذلك قال

صلى الله عليه وسلم نعم ثم صرخ في القوم أن انصرفوا معي إلى بيت جابر بن عبد الله .. قلت في نفسي : إنا لله وإنا إليه راجعون
فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل الناس معه .. فجلس .. وجئنا بالشاة إليه .. فسمى الله ثم أكل وتواردها الناس .. كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها ..
والآية الكبرى أثناء حفر الخندق هي رؤية الفتح ..
قال سلمان الفارسي إنني ضربت في ناحية من الخندق فغلظت علي صخرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان عليّ نزل فأخذ المعول من يدي ، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى .. قلت بأبي وأمي أنت يا رسول الله ، ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب .. قال صلى الله عليه وسلم : " أو قد رأيت ذلك يا سلمان ؟ "
قلت : نعم .
قال صلى الله عليه وسلم : " أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن ، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب ، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق ..
ورُوي عن أبي هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعدهما افتحوا ما بدا لكم فوالذي نفس

أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك ..

عبور الخندق

تحركت خيل من قريش على رأسها عمرو بن عبد ود ووقفوا على الخندق ..

فلما رأوه قالوا والله إن هذه لمكيدة ، ما كانت العرب تكيدها .. ثم قصدوا إلى مكان ضيقا من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه .. وما أن رآهم المسلمون حتى خرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين ووقفوا بينهم وبين الثغرة التي دخلوا منها بخيلهم .. وقال عمرو بن ود : من يبارز – فبرز له علي بن أبي طالب وقال :

يا عمرو .. إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذتهما منه

قال له : أجل

فقال علي : إني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام ..

فقال : لا حاجة لي بذلك .

قال علي : فإني أدعوك إلى النزال

فقال له : يا ابن أخي .. فوالله ما أحب أن أقتلك

فقال علي : ولكني والله أحب أن أقتلك

فحمي عمرو عن ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على عليّ فتنازلا .. فقتله علي رضي الله عنه ..

ولما رأت خيل المشركين ذلك فرت هاربة متحمة الخندق .. ولم يقدروا بعد هذه الجولة أن يقتحموا الخندق لا رجالا ولا فرسانا ..

- - -

وهبت الريح العاتية فجأة فاعتصم المسلمون منها وراء أسوار المدينة ولكنها دكت معسكر الأحزاب واقتلعت كثيرا من الخيام وقلبت كل شئ والسأم يبلغ أوجهه !!

ووقف أبو سفيان يصرخ وعواء الريح يغمر صوته ..

يا معشر قريش .. إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ! لقد هلك الخيل والإبل وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل .. وقام إلى جمله فركبه ..

انسحبت قريش .. وانسحبت وراءها غطفان والأحزاب .. والريح تثير من ورائهم الرمال وتحجبهم عن العيون .. وهم يضربون في الصحراء الرءوس منكسة .. والأجسام تنحني تحت وطأة الإحساس العقيم بالخيبة وارتفعت من معسكرات المسلمين صرخات النصر ..

ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر في وجوه الناس من حوله وهو لا يكاد يصدق نفسه !! كيف نجت المدينة من هذا الحصار ..

كيف انهزم أمامها كل هذا الحشد من أقوى الفرسان والمحاربين في الجزيرة العربية ..

لن يقووا على أن يجمعوا مثل هذا العدد مرة أخرى .. ولن يغلبوا المسلمين أبدا ..

إذن فقد نجا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابه بفضل الله وبدعائه صلى الله عليه وسلم وإنها لهيبة جديدة تلك التي تنتظره منذ اليوم .. ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الحمد لله .. نصر عبده .. وأيد جنده .. وهزم الأحزاب وحده لن تغزوكم قريش أبدا بل تغزوهم أنتم وتدخلون مكة وتحطمون أصنام الكعبة "

وتهيأ المسلمون للعودة إلى ديارهم في المدينة تهز أعطافهم كبرياء النصر فوضعوا السلاح وانصرفوا عائدين إلى المدينة ١

غزوة بني قريظة

نقض بنو قريظة عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وانضموا إلى معسكر المشركين المحاصرين للمدينة في غزوة الأحزاب ..

وبعد أن انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون عن الخندق وعادوا إلى المدينة ووضعوا السلاح .. جاء جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم : نعم

فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد .. إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة فإني عامد إليهم فمزلزل بهم ..

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوي ، محمد رسول الحرية ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٣٠٣ – ٣٠٤

واستجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر ربه تعالى فأمر علي بن أبي طالب أن يتقدم برايته إلى بني قريظة لمعرفة أحوالهم وما هم عليه ثم أمر مؤذنا فأذن في الناس من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة ..

وخرج الناس .. وحانت صلاة العصر فمنهم من صلاها في طريقه ومنهم من لم يصلها حتى دخل الليل .. ولم يعب النبي صلى الله عليه وسلم على من صلى ولا على من أخر إذ الكل عامل بطاعته ..

وقدم علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ، فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق فقال له : يا رسول الله لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابيث

قال صلى الله عليه وسلم : لمَ .. أظنك سمعت منهم لي أذى ؟

قال : نعم يا رسول الله ..

قال صلى الله عليه وسلم : " لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا "

فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال : " يا إخوان القردة ، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته "

قالوا : يا أبا القاسم ما كنت جهولا

وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب ..

وعندما جهدهم الحصار وأيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم .. قال كعب بن أسد أحد أشرافهم : يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالا ثلاث فخذوا أيها شئتم .. قالوا : وما هي ..

قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل وأنه للذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ..

قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبدا ولا نستبدل به غيره ..

قال كعب : فإن أبيتم عليّ هذه فهلم فلنقتل أبنائنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مُصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن نظهر فلنجدن النساء والأبناء

قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ، فما خير العيش بعدهم ؟

قال : فإن أبيتم عليّ هذه فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها ، فأنزلوا لعلنا نصب من محمد وأصحابه غرة

قالوا : نفسد سبتنا علينا ، ونُحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ

قال : ما بات رجل منكم منذ ولادته ليلة واحدة من الدهر حازما

تحكيم سعد بن معاذ في أمر بني قريظة

لما أصبح الصباح أُعلن عن نزول بني قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثب الأوس وشفعوا لهم وقالوا : يا رسول الله إنهم موالينا وقد فعلت في موالي إخواننا الخزرج بالأمس ما قد عملت . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه .. وشفع فيهم عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي فوهبهم رسول الله له .. فلما كلمته الأوس قال صلى الله عليه وسلم ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجلا منكم ؟

قالوا : بلى يا رسول الله

قال صلى الله عليه وسلم : " فادعوا إليّ سعد بن معاذ .. وكان سعد قد أصيب بسهم في غزوة الخندق فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوضع سعد في خيمة رفيدة الأسلمية في مسجده حتى يعوده عن قرب . فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني قريظة أتاه قومه ، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم

قال سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه إن الحكم فيهم لما حكمت

قالوا : نعم

قال سعد : وحكمي نافذ فيهم وعلىَ المسلمين

قالوا : نعم

قال سعد : وعلى من ههنا ؟ يشير إلى الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عنه إجلالا وتوقيرا له

فقال صلى الله عليه وسلم : نعم

قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال وتقسم الأموال وتُسبى الذرابي والنساء

قال صلى الله عليه وسلم : " لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات "

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتنفيذ حكم سعد بن معاذ

فضُربت أعناق الرجال وقسمت أموالهم ونسائهم وذراريهم ..

ولم يقتل من النساء إلا امرأة واحدة كانت قد طرحت على رأس سويد ابن الصامت رحى فقتلته ..

- - -

وهكذا تخلص الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون من يهود المدينة ..

وكانت غزوة كل طائفة منهم عقب غزوة من الغزوات الكبار كما تقدم

فغزوة بني قينقاع عقب غزوة بدر ..

وغزوة بني النضير عقب غزوة أحد ..

وغزوة بني قريظة عقب غزوة الخندق ..

وفاة سعد بن معاذ

كان سعد قد رُمي بسهم يوم الخندق فعاش بعد ذلك شهرا حتى حكّم في بني قريظة ثم مات بعد أن أقر الله تعالى عينيه بهلاك بني قريظة ..

كما سأل ربه ذلك – فأتى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل وقال له : يا محمد من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له عرش الرحمن فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن معاذ ولحق به أبو بكر وعمر فوجدوه قد مات شهيدا متأثرا بجرحه الذي أصيب به يوم الخندق .. ١

غزوة بني المصطلق

في شعبان سنة ست من الهجرة

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق يجمعون له بقيادة الحارث بن أبي ضرار .. فخرج إليهم ولقيهم على ماء لهم يقال له المريسع ..

فتقابل الناس وانتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه .. وأصاب المسلمون سبايا كثيرة قسمها الرسول بين المسلمين .. ومن بين السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار وقعت في سهم أحد الصحابة .. فطلبت جويرية من مالكها أن يكاتبها لتتحرر فأتت النبي صلى الله عليه وسلم تستعينه على كتابتها ..

---

(١) اقرأ سيرة سعد بن معاذ كاملة في كتابنا مدرسة الرسول ، ص ٢٥٩ – ٢٦٩

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: " هل لك في خير من ذلك ؟ "

قالت : وما هو يا رسول الله ..

قال صلى الله عليه وسلم : " أقضي عنك كتابتك وأتزوجك

قالت : نعم يا رسول الله

فتزوجها صلى الله عليه وسلم بعد أن سدد كتابتها

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج بجويرية ..

فقالوا : أصهار رسول الله !! كيف نملكهم ؟ فأعتقوا ما لديهم من سبايا بني المصطلق وكانوا قد زادوا على المائة ..

وقالت السيدة عائشة : ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها

الفتنة بين المهاجرين والأنصار

اختلف رجلان من المهاجرين والأنصار على الماء فاستنجد كل منهما بقومه ..

فقال عبد الله بن أُبي : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم .. أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم .. ويسمع ذلك زيد بن أرقم .. فمشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر وعنده عمر ابن الخطاب فاستأذن عمر في قتل عبد الله بن أبي

فقال صلى الله عليه وسلم : " كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه .. لا .. ولكن أذن بالرحيل .. وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها .. فارتحل الناس ..

ولما سمع عبد الله بن أبي الخبر جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف بالله ما قال ما نقله الغلام ولا تكلم فيه فقال القوم يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أخطأ ..

حديث الإفك

وقبل أن يأذن الرسول صلى الله عليه وسلم بالرحيل كانت السيدة عائشة قد خرجت من خيمتها لبعض حاجتها .. فلما فرغت انسل عقدها من عنقها فأخذت تبحث عنه حتى وجدته ، وعادت إلى الرّحل فإذا القوم قد رحلوا ، وأخذوا هودجها وهم يظنون أنها فيه لخفة وزنها فاحتملوه وشدوا على البعير ..

وبقيت السيدة عائشة في مكانها حتى أقبل صفوان بن المعطل السّلمي فقرّب بعيره وقال لها : اركبي ، واستأخر عنها حتى ركبت وأخذ برأس البعير حتى وصل المدينة .. فقال أهل الإفك ما قالوا ..

وظل الرسول صلى الله عليه وسلم صابرا على مضض لا يفعل شيئا أكثر من أن يرفع إلى السماء رأسه يسأل ربه الهداية ويطلب منه الإرشاد .. وقد كان صلى الله عليه وسلم واثقا من أن الله الذي أيده بنصره وتوفيقه لن يخزيه في عرضه وأنه لابد مظهر الحق ومبطل الباطل ..

وتعرضت أم المؤمنين عائشة من البلاء حتى كشف الله غمتها وفرج كربها وأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات ..

يقول الله تعالى ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم . لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم . والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم** ﴾ ١

وعادت عائشة البريئة الطاهرة إلى بيتها وإلى مركزها الرفيع في نفوس المسلمين جميعا ..

وهكذا هدأت الزوبعة .. ونام الشر في مرقده .. وقضي على المؤامرة الوضيعة التي أراد بها عبد الله بن أبي سلول أن ينال من رسول الله صلى الله عليه وسلم بطعنه في عرضه والنيل من الصديقة بنت الصديق ..

وأتى عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل والدي فإن كنت لا بد فاعلا فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا

---

(١) سورة النور – آية ١١ – ١٥

تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله ، فاقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا ..

وجعل ابن أبي بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويذدرونه ويحتقرون تصرفاته .. ويعنفونه .. فقال صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك كيف يا عمر ، أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لغضب له البعض وأخذتهم الحمية .. هؤلاء لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه ..

قال عمر : قد علمت والله لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري ١

رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحكام والملوك في السنة السادسة من الهجرة

بعد أن قضى النبي صلى الله عليه وسلم على اليهود .. وبعد أن عقد صلح الحديبية مع قريش .. كاتب الحكام والملوك يدعوهم إلى الإسلام فبعث الرسل تحمل كتبه إلى كل من كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم والنجاشي ملك الحبشة والمقوقس ملك مصر ..

والرسل الذين أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم هم :

دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم

(١) عبد الرحمن الشرقاوي ، الفاروق عمر بن الخطاب ، ص ٢٨ ـ ٢٩

حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك مصر
عبد الله بن حذافة إلى كسرى ملك الفرس
عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة
شجاع بن وهب إلى الحارث الغساني ملك تخوم الشام
العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساري ملك البحرين .. فأسلم.
عمرو بن العاص إلى ملك عمان .. فأسلم
المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث الحميري ملك صنعاء .. فأسلم
أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن .. فأسلم عامة أهل اليمن
وكتب النبي إلى جبلة بن الأبهم ملك غسان .. فأسلم أولا .. ثم ارتد عن الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب

أما النجاشي ملك الحبشة فأسلم وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم فوضعه على عينيه مرحبا بالدعوة

وأما كسرى ملك فارس فأخذ الكتاب فمزقه وطلب إلى عامله على اليمن بازان أن يرسل رجالا أشداء يأتينه بمحمد ، ولما قدم رسل كسرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبروه بالأمر قال لهم : " أبلغا صاحبكما أن ربي قتل كسرى في هذه الليلة "

يقول الرواة أنه في تلك الليلة قُتل كسرى فعلا على يد ابنه شيرويه ، فأسلم بازان ومن معه باليمن من أبناء فارس ..

وأما قيصر ملك الروم فأراد أن يستوثق من أمر هذا النبي ويعرف حقيقته فبعث إلى جماعة من تجار العرب الذين يأتون الشام فأحضرهم

وكان فيهم أبو سفيان بن حرب قبل إسلامه .. ووجه إليه قيصر أسئلة كثيرة يتحرى بها عن صفة رسول الله وأخلاقه وقومه وما يدعو إليه .. فتأكد من الإجابات على أسئلته أنه رسول الله حقا ورغب في الإسلام ، ولكنه عندما عرض الأمر على من عنده من عظماء الروم رفضوا ذلك ولم يقبلوا ترك دينهم .. وجاراهم قيصر على رأيهم ظاهرا خوفا على عرشه ..

أما الحارث الغساني فقرأ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ثم رمى به وعزم على أن يسير بجيشه إليه فيقاتله ، وكتب بذلك إلى قيصر ملك الروم فأمره ألا يفعل ..

غزوة خيبر في السنة السابعة للهجرة

كانت خيبر مصدر قلق مستمر على المسلمين وكانت آخر معاقل اليهود وكانت منيعة الحصون ..

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة في المحرم من السنة السابعة للهجرة ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب .. وسار الركب المبارك حتى أشرف على خيبر فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه قفوا فوقفوا ، ثم دعا الله قائلا :

" اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين .. فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ثم قال أقدموا باسم الله "

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوما لم يُغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع آذانا أمسك ، وإن لم يسمع آذانا أغار ..

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ليلا فبات حتى أصبح لم يسمع آذانا واستقبل عمال خيبر غادين إلى أعمالهم .. فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قالوا : محمد والجيش معه ، فأدبروا هربا ودخلوا حصونهم .. فحاربهم رسول الله واستمر القتال الشرس حتى تمكن جند الله من فتح الحصون واحدا تلو الآخر وكان النصر المبين .. وغنم المسلمون منها مغانم كثيرة ، وأصاب المسلمون سبايا كثيرة منهن صفية بنت حي بن أحطب التي تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وأثناء القتال خرج مرحب اليهودي وقال : من يبارز

فقال صلى الله عليه وسلم : " من لهذا ؟ "

فقال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله

فقال صلى الله عليه وسلم : " فقم إليه ، اللهم أعنه عليه "

فتصاولا فترة ، ثم أمكن الله بن مسلمة من مرحب فقتله ..

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول من يبارز ؟

فقال الزبير بن العوام .. أنا لك ..

وتبارزا فقتل الزبير ياسر اليهودي

وتم فتح خيبر بفضل الله تعالى .. ودخلها المسلمون ..

قصة الشاه المسمومة

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدت له زينب بنت الحارث شاة مشوية مسمومة .. وقد عرفت أن أحب عضو من الشاة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذراع فأكثرت فيها السم .. ثم جاءت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعتها بين يديه فتناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يُسغها .. وكان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر بن البراء بن معرور فأكل من الشاة فمات .. أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفظها ثم قال : " إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم .. " ثم دعا بها فاعترفت فسألها : " ما حملك على هذا ؟ "

قالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك .. فقلت إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسَيُخبر .. فتجاوز عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم

- - -

ووصل جعفر بن أبي طالب وأصحابه خيبر بعد فتحها قادمين من الحبشة فأسهم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم أدركوه فيها ..
ورُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قبل جبهة جعفر وقال : " والله ما أدري بأيهما أفرح ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ "

- - -

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر انصرف إلى وادي القرى فحاصر أهله ليالي ثم عاد في رعاية الله إلى المدينة ..

فتح مكة

كان صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش في آخر سنة ست هجرية اصطلحا فيه على وضع الحرب بينهما عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .. ودخلت قبيلة خزاعة في حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلت قبيلة بكر في حلف قريش ..

واختلف رجلان من بكر وخزاعة واقتتلا ، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح والدواب ، وقاتل معهم جماعة من قريش مختفين فانحازت خزاعة إلى الحرم لائذة به إلا أن بكرا لم تحترم الحرم وقاتلت خزاعة به وقتلت منهم ..

وبهذا كانت قريش قد نقضت عهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أعانت بني بكر على خزاعة أحلاف النبي صلى الله عليه وسلم وغدرت بهم .. وعندئذ خرج رجل من خزاعة وتوجه إلى المدينة وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي جرى ..

وعزم النبي صلى الله عليه وسلم على غزو قريش وفتح مكة لنقض قريش عهدهم معه ..

ولما علم حاطب بن أبي بلتعة بعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسير إلى قريش كتب كتابا إلى قريش يعلمهم فيه بما عزم عليه الرسول ، وبعث الكتاب مع امرأة .. وأوحى الله إلى رسوله بالخبر

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام لافتكاك الكتاب منها قبل وصولها مكة ، فخرجا في أثرها فأدركاها في الطريق وأخذا الكتاب منها ..

وأحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وسأله عما حمله على هذا ؟ فقال : والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما بدلت وما غيرت ولكن لي بين أظهرهم أهل وولد وليس لي عشيرة وأعلم أن الله ناصر رسوله فقال عمر بن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد نافق .. فقال صلى الله عليه وسلم : " وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "

السير إلى مكة

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة في العاشر من رمضان .. وكان قد قسم الجيش إلى أربعة أقسام : الميسرة وعليها الزبير بن العوام ، الميمنة وعليها خالد بن الوليد ، القلب وعليه أبو عبيدة بن الجراح .. أما الطليعة فقد جعل عليها سعد بن عبادة الأنصاري .. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قواده أن يدخلوا مكة بأقل ما يمكن من الدماء .. ولكن سعد بن عبادة خرج من عند رسول الله وهو ينظر إلى مكة من بعيد قائلا : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة

فقال صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب : " أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها " [1]

وفي الطريق إلى مكة لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه العباس بن عبد المطلب جاء مهاجرا فقال صلى الله عليه وسلم : " شاء الله أن تكون آخر المهاجرين وأنا آخر الأنبياء "

كما لقيه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وأسلم بين يديه ..

قال العباس لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا .. فقال صلى الله عليه وسلم : " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه عليه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن "

فلما ذهب لينصرف قال صلى الله عليه وسلم يا عباس احبسه بمضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها .. ففعل العباس ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومرت القبائل .. وكلما مرت قبيلة سأل عنها أبو سفيان فإذا أخبره به العباس قال : مالي ولبني فلان .. حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار ، فقال سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار

قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيما

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوي ، محمد رسول الحرية ، ص ٣٦٠

قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة

قال : فنعم إذن ١

- - -

وخرج أبو سفيان إلى مكة فصرخ : يا معشر قريش .. هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به .. من دخل داري فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .. ثم قال : يا معشر قريش اسلموا تسلموا .. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ..

- - -

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة اتجه إلى المسجد الحرام حتى إذا بلغ البيت طاف سبعا ، وأمر بتكسير الأصنام والتماثيل ..

وقد رُوي عن ابن عباس أنه قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر فمحيت ، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال :

" قاتلهم الله والله ما استقسما الأزلام قط " ٢

ولما كُسرت الأصنام والتماثيل ومحيت الصور قال صلى الله عليه وسلم :

" جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " ثم قال على باب الكعبة

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٢٧٣

(٢) البخاري ، ج ٥ ، ص ٨٧ كتاب المغازي ومسند أحمد ج ١ ، ص ٣٦٥

" لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .. يا معشر قريش .. إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب " ثم قال صلى الله عليه وسلم " يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ "

قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم

قال صلى الله عليه وسلم : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " فعفا عنهم بعد أن أمكنه الله تعالى منهم ، فضرب بذلك المثل في العفو والصفح عن الجناه بعد القدرة عليهم والتمكن منهم ..

- - -

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا للبيعة وعمر بن الخطاب بجانبه

وتقدم الرجال يبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله ، ولما فرغ من بيعة الرجال جاءت النساء للبيعة فقال صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب بايعهن يا عمر .. واستغفر لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان صلى الله عليه وسلم لا يصافح النساء ..

- - -

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال والنساء كان قد حان وقت الظهر فأمر بلالا أن يطلع على سطح البيت الحرام يؤذن للصلاة ..

ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد يوم الفتح وذلك في العشرين من رمضان أتى أبو بكر الصديق بوالده قحافة .. فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه !! "

قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت ..

فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم بين يديه ثم مسح على صدره .. وقال أبو قحافة أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ..

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أم هانئ بنت أبي طالب فاغتسل وصلى ثمان ركعات في بيتها ، وكان ضحى فظنها من ظنها صلاة الضحى ، وإنما هي صلاة الفتح ، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصنا أو بلدا صلوا عقب الفتح هذه الصلاة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وفي القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكرا لله عليه ، فإنها قالت : ما رأيته صلاها قبلها ولا بعدها ..

وأجارت أم هانئ حموين لها .. فقال صلى الله عليه وسلم : " قد أجرنا من أجارت أم هانئ " ١

وأقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فترة اقتص فيها ممن يستحقون القصاص .. وعفا عن كثير .. ودخل أهل مكة يومئذ في دين الله أفواجا

(١) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩

وظن الأنصار أن النبي لن يعود إلى المدينة وأنه سيؤثر المقام في بلده وبين أهله وعشيرته ، فأراد النبي أن يطمئنهم وقال لهم : " معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم "

وعاد النبي صلى الله عليه وسلم مع الأنصار إلى المدينة بعد الفتح وعاش بها حتى انتقل إلى جوار ربه ..

غزوة حنين

العام الثامن من الهجرة بعد فتح مكة

استاءت هوازن من فتح المسلمين مكة .. فحشدوا قواهم وخرجوا بقيادة مالك بن عوف لملاقاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وساقوا معهم أولادهم ونساءهم وانضم إليهم بعض العرب ..

فلما نزلوا بأوطاس اجتمع إليهم الناس وفيهم دريد بن الضمة أقبل بأعوامه المائة وبكل تجاربه في الفتك والمعارك ..

قال دريد لمالك : إنك قد أصبحت رئيس قومك وإن هذا ليوم كائن ما بعده من الأيام ، مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير قال مالك : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .. ونصحه دريد أن يعيد النساء والأبناء إلى موطنهم وأن يلقى المسلمين على متون الخيل ، وقال له إن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك ..

ولم يقبل مالك بنصيحة دريد وبعث عيونا له يأتون الخبر ، فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم فسألهم عما بهم فقالوا : رأينا رجالا بيضاء على خيل بُلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى .. ولم يثنه ذلك عن عزمه على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

- - -

ولما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليهم أحد الصحابة ليأتيه بخبرهم ، فانطلق الرجل وأقام فيهم حتى سمع وعلم ما أجمعوا عليه .. ثم أقبل وأخبر الرسول الخبر وأدرك الرسول والمسلمون مما سمعوه أن عدوهم يخوض معركة الحياة أو الموت حقا

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد لقاء هوازن .. وتقدم المسلمون .. وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يثبتوا طريقهم جيدا قبل أن يتقدموا حتى لا يفاجئهم العدو من شعاب المنحدر ..

وتقدم المسلمون .. في الطليعة خالد بن الوليد على رأس الفرسان مزهوين بسمعتهم الحربية وبما حققوه من انتصارات ..

وتدافع وراءهم الجنود صفا بعد صف ، وقد أعجبتهم كثرتهم وهم يملؤون الوادي حتى لقد نسوا أوامر قائدهم أن يتحسسوا طريقهم وألا يتقدموا خطوة إلا بعد أن يتبينوا أنهم آمنون ..

وفجأة وهم يتخايلون بكثرتهم إنهمرت عليهم السهام كالأمطار من شعاب كل المنحدرات المحيطة بالوادي ، وانفجر الرعب من كل المضايق وبرزت كتائب بني ثقيف وحلفائهم تحاصرهم من كل مكان .

واضطربت الخيل والإبل وفر الفرسان .. وعماية الفجر تحجب عنهم الكتائب التي تهبط من مضايق المنحدرات المحيطة بالوادي .. وتتابع فرار الجنود المسلمين ..

وتلفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فجأة فلم يجد من جنوده غير عشرات قليلة من المسلمين الأوائل ومن أهل بيته على رأسهم العباس وأبو بكر وعمر وأسامة بن زيد

وصرخ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنوده الفارين : إلى أين أيها الناس .. هلموا إليّ .. أنا رسول الله .. أنا محمد بن عبد الله .. أنا النبي لا كذب ..

ويأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه العباس – وكان امرئ جهور الصوت – أن يصرخ في الأنصار .. ويصرخ العباس : يا معشر الأنصار ..

فأجابوا : لبيك لبيك .. حتى إذا اجتمع إليه نحو مائة رجل جعلهم رسول الله تحت قيادة علي بن أبي طالب .. استقبلوا الناس فاقتتلوا .. وحمي الوطيس .. واقتتل الناس قتالا شديدا .. وعمد عليّ إلى قائد جيش العدو فقتله ..

ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أم سليم الأنصارية وفي يدها خنجر ، فسألها عنه فقالت : يا رسول الله إن دنا مني مشرك بقرت به بطنه [1]

وقد رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ حصاة فرمى بها في وجوه الكفار ثم قال : " انهزموا ورب محمد ، شاهت الوجوه "

فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة ، فولوا مدبرين ..

وانهزمت هوازن .. وهرب حلفائهم .. وقصد بعض المشركين الطائف ومعهم مالك .. وأتبعتهم خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلت بعضهم .. وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا .. وأمر رسول الله أن يوضع الأسرى والغنائم في مكان أمين ..

وجعل بعض صحابته على الغنائم والأسرى من النساء والأطفال ..

وقاد جيشه إلى الطائف ليقتحمها على ثقيف التي اعتصمت وراء أسوارها ..

غزوة الطائف

قاد رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه إلى الطائف ليقتحمها على ثقيف التي اعتصمت وراء أسوارها ، وأغلقوا عليهم أبوابها ..

---

(١) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٨ ، ص ٤٢٥
وأم سليم الأنصارية (الرميصاء) هي أول امرأة كان مهرها الإسلام ..
وهي إحدى المبشرات بالجنة

ونـزل رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم قريبا مـن الطـائف فضـرب بـه عسكره .. وطلب من بنـي ثقيف التسليم ، ولكنهم رفضوا وأقسموا ألا يستسلموا حتى يدخل عليهم الطائف عنوة ..

وظلوا يرمون المسلمين بالسهام .. والذين فروا عن الرسول في أول غزوة حنين تباروا في الأعمال الفدائية أمام أسوار الطائف حتى فقد أبو سفيان عينه في بعض هذه الأعمال ، ولكن كل هذا كان بلا جدوى [1]

وبعد أن أنفق رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين يوما في حصار الطـائف قرر أن ينسحب بجيشه قبل أن يتحول الأمر إلى هزيمة تفسد انتصاراته ..

وذهب رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم إلـى المكـان الـذي تـرك فـيه الأسرى والغنائم ..

وهناك وجد من بين الأسرى الشيماء بنت الحارث أخته في الرضاعة فبسط لها رداءه وأجلسها عليه ، وخيرها وقال :

" إن أحببت فعندي محببة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت "

فقالت : بل تمتعني وتردني إلى قومي ..

ففعل صلى الله عليه وسلم وأفرج عن كل نساء قبيلتها ورد إليهم أموالهم .. وأقبلت وفود القبائل التي حالفت بني ثقيف تلتمس من رسول

---

(١) عبد الرحمن الشرقاوي ، محمد رسول الحرية ، ص ٣٨٠

الله الإفراج عن أسراها من النساء فأفرج عنهم .. وكان لهذا العمل أثره في نفوس وفود القبائل فأعلن كثير منهم إسلامه ..

- - -

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن عوف سيد بني ثقيف فأسلم وحسن إسلامه ، فرد إليه رسول الله ماله ونساءه وأولاده وأهداه مائة بعير ..

وكسب رسول الله صلى الله عليه وسلم من تصرفه هذا أضعاف أضعاف ما كان يمكن أن يكسبه من حرب الطائف .. فما أن أعلن مالك ابن عوف إسلامه حتى تبعه معظم أهل ثقيف ..

- - -

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون إلى المدينة .. وفي الطريق مرّ بقبر أمه .. ودمعت عيناه .. تركته طفلا يتيما ، وها هو اليوم يحمل مسئولية التنوير للأمة الإسلامية .. تلين له الطائف وتتبعه قريش وترتفع رايته على المدينة وعلى مضارب الخيام العديدة في الصحاري الشاسعة ..

وكل ما ينشده الآن هو أن يجمع العرب المتنافرين تحت راية واحدة ليكونوا أمة واحدة تؤمن بإله واحد ودين واحد وقيم واحدة .

قدوم الوفود إلى المدينة

في السنة التاسعة من الهجرة عام الوفود

حقق النبي صلى الله عليه وسلم عدة انتصارات حاسمة على قريش انتهت بفتح مكة ثم خرج إلى الروم بعد ذلك في غزوة تبوك التي انتهت ببقاء جنود الروم بحصونهم داخل بلاد الشام واحتمائهم بها وعدم خروجهم منها لقتال المسلمين رهبة وخوفا منهم مع ما لدولة الروم من قوة وسلطان ..

فلما رأى العرب ما وصل إليه النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون من قوة ومنعه وأنهم أصبحوا أمة قوية لا يستهان ببأسها وأنه لا قبل لأحد بعداوتها والتغلب عليها بعد أن دانت لها قريش ومن معها وأذعنوا ودخلوا في دين الله أفواجا .. عندئذ أخذت وفود القبائل العربية تتوافد إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعلن إسلامها ..

وقد أخبر الله تعالى بذلك في قوله ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ [1]

وقد بدأ توافد الوفود على النبي صلى الله عليه وسلم بعد عودته من غزوة الطائف إلى المدينة .. وكان أعضاء الوفود القادمة لمقابلة

---

(١) سورة النصر – آية ١ – ٣

الرسول صلى الله عليه وسلم يمثلون قبائلهم ويعبرون عن رغبتهم الصادقة في اعتناق الإسلام وإبداء طلباتهم ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرم وفادة رسل القبائل ويعلمهم شرائع الإسلام ويمنحهم بعض الهبات والهدايا عند انصرافهم ..

وكان من أهم هذه الوفود

وفد ثقيف

جاء هذا الوفد النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف للدخول في الإسلام بعد أن ترك جنودها حصونهم التي احتموا بها مدة حصار النبي لهم فيها ، وذلك بعد أن أدركوا أنه لا أمل في مقاومة النبي صلى الله عليه وسلم وحربه .. ولكنهم طلبوا من النبي أن يبقي لهم على أصنامهم فأبى ، ثم إنهم طلبوا إعفاءهم من الصلاة فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : " لا خير في دين لا صلاة فيه "

وفد بني أسد

وكانوا أقوياء أشداء ، وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولا ، يمنون بهذا على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيهم **﴿ يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علىّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾** [1]

---

(١) سورة الحجرات – آية ١٧

وفد تميم

دخل الوفد المسجد ونادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته بجفاء وسوء أدب قائلين : يا محمد ، يا محمد أخرج إلينا .. فآذوا بذلك رسول الله بصياحهم ورفع أصواتهم ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم نزل قوله تعالى **﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم ﴾** [١]

ولما سمعوا ذلك أسلموا وندموا على ما كان منهم ..

وفد بنو سعد بن بكر

بعث بنو سعد ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم .. فأقبل حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه فقال : أيكم ابن عبد المطلب

فقال صلى الله عليه وسلم : " أنا ابن عبد المطلب " .

قال : أمحمد أنت

قال صلى الله عليه وسلم : نعم

قال : يا ابن عبد المطلب إني أسألك ومغلظ عليك في المسألة

فقال صلى الله عليه وسلم : " سل عما بدا لك "

---

(١) سورة الحجرات – آية ٤ – ٥

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله بعثك إلينا رسولا ؟

قال صلى الله عليه وسلم : " اللهم نعم "

قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه

قال صلى الله عليه وسلم : " اللهم نعم "

قال : فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس

قال صلى الله عليه وسلم : " اللهم نعم "

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة .. الزكاة والصيام ، والحج وشرائع الإسلام كلها ينشده عند كل فريضة منها ، كما ينشده في التي قبلها حتى إذا فرغ قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ..

وسأؤدي هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتني عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ثم انصرف عائدا إلى قومه .. فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى ..

قالوا : مه يا ضمام .. اتق البرص .. اتق الجزام .. اتق الجنون ..

قال : ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان .. إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله

وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه .. فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا أسلما ..

قال عبد الله بن عباس : فما سمعنا بوافد قدم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة [1]

وفد نجران

جاء الوفد من جنوب اليمن لمقابلة النبي صلى الله عليه وسلم وقد ارتدى الكهنة فيهم الملابس الحريرية الفاخرة وتكلفوا في تزيين أنفسهم ولما حانت الصلاة صلوا مستقبلين بيت المقدس ، ولما أتموا صلاتهم دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للإسلام فأبوا وقالوا كنا مسلمين قبلكم .. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كذبتم .. يمنعكم من الإسلام ثلاث : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولد "

فقالوا : فمن مثل عيسى ، خُلق من غير أب .. وجادلوا في أشياء أخرى فأنزل الله تعالى قوله ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ [2]

وبعد ذلك صالحوا النبي على الجزية ورجعوا إلى بلادهم ..

---

(١) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٤١٢ – ٤١٣

(٢) سورة آل عمران – آية ٥٩

فرض الحج وأبو بكر أميرا على الحج

فرض الله الحج في العام التاسع من الهجرة .. وكانت الوفود قد توالت على المدينة في هذا العام فآثر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبقى بالمدينة لاستقبال الوافدين .. وبعث أبا بكر الصديق أميرا على الحج .. فخرج أبو بكر من المدينة يسوق البدن أمامه موليا وجهه شطر المسجد الحرام .. ونزل الوحي بسورة براءة بعد انصراف أبي بكر ووفد الحجيج فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب إليه بالآيات ليقرأها على أهل الموسم .. وخرج فلحق أبا بكر في الطريق ، فسأله أبو بكر أميرا أم مأمور .. قال عليّ : بل مأمور .. وأبلغ أبا بكر برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعمل أبو بكر على إعلان سورة براءة في مجامع الحجاج بواسطة مؤذنين وضعهم في عدة أماكن ..

ونادى علي رضي الله عنه يوم الأضحى قائلا : لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله إلى مدته .. ورجع المشركون فلام بعضهم بعضا وقالوا : ما تصنعون ، وقد أسلمت قريش ؟!! فأسلموا [1]

(١) أبو بكر جابر الجزائري ، هذا الحبيب محمد يا محب ، ص ٣٦٦

حجة الوداع (البلاغ) [1]

اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن معظم القبائل العربية قد انطوت تحت لواء الإسلام ولم تعد أمامه مشاغل تشغله .. فعزم على أداء فريضة الحج .. وأعلن للناس عن نيته حتى يصحبه من يشاء منهم وخرج صلى الله عليه وسلم من المدينة يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة في العام العاشر للهجرة ، وسار معه حشد كبير من المهاجرين والأنصار والقبائل التي قدمت للمدينة لمرافقة النبي في حجه ، ودعا الله تعالى قائلا : " اللهم اجعله حجا مبرورا لا رياء فيه ولا سمعة "

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الحليفة لبس ثياب الإحرام وأحرم المسلمون جميعا ، وأخذ يلبي قائلا : " لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك " والمسلمون يرددون التلبية ..

وتابع الموكب الوضاء السير حتى وصل مكة فدخل الرسول المسجد الحرام وتبعه سائر المسلمين ، ثم رفع يديه قائلا : " اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ، وزد كل من شرفه وعظمه ممن حجه أو أعتمره تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما وبرا "

---

(١) سميت حجة الوداع لأنه صلى الله عليه وسلم ودع أمته فيها ولم يحج بعدها ولم يعش بعدها سوى بضعة أشهر وتسمى حجة البلاغ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ فيها الكثير من الأحكام

ثم طاف بالبيت سبعة أشواط ثم صلى خلف مقام إبراهيم ركعتين ثم سعى بين الصفا والمروة وعاد بعدها إلى منزله ..

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة سار النبي صلى الله عليه وسلم إلى منى فأقام بها ليلة ، ثم خرج في صباح اليوم التاسع إلى جبل عرفات والمسلمون يتبعونه ، وهناك ألقى خطبته الخالدة التي يعتبرها المسلمون دستور الإسلام

قال صلى الله عليه وسلم : " أيها الناس ، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كلّ ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعا في بني ليث ، فقتلته هُذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية ..

أما بعد ، أيها الناس فإن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكن إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .. أيها الناس إن النسئ زيادة في الكفر ، يُضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عام ، ليواطئوا عدة ما حرم الله

فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ورجب الذي بين جمادي وشعبان ..

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح .. فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيرا ، فإنهن عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئًا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فأعتقلوا أيها الناس قولي ، فإني قد بلغت ، وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا بعدي أبدا ، أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه ..

أيها الناس اسمعوا قولي وأعقلوه ، تعلمُنّ أن كل مسلم أخ للمسلم ، إن المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت ؟!! "

فقال الناس : اللهم نعم

فقال صلى الله عليه وسلم : " اللهم فاشهد "

أيها الناس إن الله قد أدّى إلى كل ذي حق حقه ، وأنه لا تجوز وصية لوارث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، ومن ادّعى إلى غير أبيه أو

تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل ..

وبعد زوال الشمس أكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاعر الحج بعد أن علّم الأمة كل ما هي في حاجة إليه إلى يوم الدين

رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمرات كلهن في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجته فإنما اعتمر في ذي الحجة ..

مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته

بدأ مرض الرسول صلى الله عليه وسلم في أوائل شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشر فأصابه صداع وحمى .. وقبل ذلك بأيام خطب الناس فنعى إليهم نفسه وهم لا يشعرون إذ صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه لما هو أهله وقال : " إن الله خَيَّرَ عبدا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عند الله "

فبكى أبو بكر .. فعجب الناس من بكائه ، بكى لأنه فهم أن المُخيّر هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما اشتد المرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعجز عن الصلاة بالناس قال : " مروا أبا بكر فليصل بالناس "

فقام أبو بكر يصلي بالناس .. ووجد النبي صلى الله عليه وسلم من نفسه قدرة فخرج بين العباس وعلي بن أبي طالب لصلاة الظهر ، فلما

رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ إليه صلى الله عليه وسلم ألا يتأخر وقال للعباس وعلي : أجلساني إلى جنبه .. فأجلساه إلى جنب أبي بكر

أبو بكر يصلي – وهو قائم – بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قاعد ، والناس يصلون بصلاة أبي بكر [1]

ولما كان يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع أول الذي قبض فيه صلى الله عليه وسلم والناس في صلاة الصبح وأبو بكر يصلي بالناس فاجأهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكشف ستر حجرة عائشة فينظر إليهم وهم صفوف في الصلاة فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سرورا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم .. وفرح الناس برسول الله فأشار إليهم بيده أن أتوا صلاتكم .. ثم دخل الحجرة وأرخى الستار ، وقال أنس بن مالك ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن هيئة منه تلك الساعة ..

وانصرف الناس بعد الصلاة وهم يرون النبي صلى الله عليه وسلم قد برئ من وجعه ..

واطمأن أبو بكر واغتبط بما آنسه من ملامح العافية على النبي صلى الله عليه وسلم ورجع إلى منزله في ضواحي المدينة ..

وتدخل صفية على رسول الله فتراه يشكو فتقول له : لوددت أن الذي بك بي يا رسول الله وتسمعها عائشة وحفصة وزينب فيتغامزون عليها هذه الزوجة اليهودية التي تحسن الدخول إلى قلب الرجل بنعومتها !!

---

(١) أبو بكر جابر الجزائري ، هذا الحبيب محمد يا محب ، ص ٣٨٢

ويبصرهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول لهن : " مضمض من تغامزكن بها ، والله إنها لصادقة "

ولكن عائشة تقول متهكمة : حسبك من صفية قصرها فيضيق رسول الله صلى الله عليه وسلم بغيرتها ويقول لها : " لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته " ..

- - -

عن أبي هريرة أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي قبض فيه فقال : إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول : كيف تجدك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " أجدني وجعا يا أمين الأمة " ثم جاءه من الغد فقال : يا محمد إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول : كيف تجدك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " أجدني يا أمين الأمة وجعا " ثم جاءه في اليوم الثالث ومعه ملك الموت فقال : يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول : كيف تجدك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : " أجدني يا أمين الأمة وجعا ، من هذا الذي معك ؟ "

قال : هذا ملك الموت عليه السلام وهذا آخر عهدي بالدنيا بعدك ، وآخر عهدك بها ، ولن آسى على حالك من ولد آدم بعدك ، ولن أهبط إلى الأرض إلى أحد بعدك أبدا ، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم

سكرة الموت وعنده قدح فيه ماء ، فكلما وجد سكرة أخذ من ذلك الماء فمسح به وجهه وهو يقول : " اللهم أعني على سكرة الموت " [1]

- - -

وانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول في السنة الحادية عشرة من الهجرة ..

ولم ينتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن اكتمل الدين ودخل الناس في دين الله أفواجا ..

يقول الله تعالى **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾** [2]

وترك أمته على المحجة البيضاء

وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " قد تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك " رواه الحاكم في المستدرك

ولقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه كبقية الأنبياء والرسل وغيرهم لأن البقاء لله وحده ..

يقول تعالى **﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾** [3]

---

(١) رواه الترمزي ٢٩٧٨ وابن ماجه ١٦٢٣ والحاكم ٢ / ٤٦٥ و ٣ / ٥٦
(٢) سورة المائدة – آية ٣
(٣) سورة الأنبياء – آية ٣٣ ، ٣٤

وحضر أبو بكر فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغشي بثوب حيرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ، وبكى .. ثم قال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتّها

وخرج أبو بكر فأقبل الناس إليه فقال : من كان منكم يعبد محمدا صلى الله عليه وسلم فإن محمدا قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت ..

يقول الله تعالى ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم . ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا سيجزي الله الشاكرين** ﴾ [1]

ورُوي عن ابن عباس أنه قال : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشرا من الناس إلا يتلوها ..

وقال عمر بن الخطاب : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرت حتى ما تُقلني رجلاي ، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها إن النبي قد مات رواه البخاري

- - -

رُوي عن أنس بن مالك أنه قال : لما ثقل النبي صلى الله عليه وسلم جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة : واكرب أبتاه .. فقال لها صلى الله

---

(١) سورة آل عمران – آية ١٤٤

عليه وسلم : " ليس على أبيك كرب بعد اليوم ، وبشرها بأنها سيدة نساء العالمين " صحيح البخاري

فلما مات قالت : يا أبتاه .. أجاب ربا دعاه ، يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ، فلما دُفن قالت : يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب " رواه البخاري

وقد رُوي عن ابن عباس أنه قال : أُوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين ، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشرا وتوفي وهو ابن ثلاث وستين " رواه البخاري ٣٩٠٢

فصلى الله عليه وسلم يوم ولد ويوم دعا وجاهد ويوم حج واعتمر .. ويوم ودع .. ويوم التحق بالرفيق الأعلى في جنة عرضها السموات والأرض ..

الصلاة على النبي والسلام عليه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشر صلوات ، وحطّ عنه عشر خطيئات " رواه الإمام أحمد

وقال صلى الله عليه وسلم : " إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة " رواه الترمذي

وقال صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله إليّ روحي حتى أرد عليه السلام " رواه الإمام أحمد وأبو داود

وبعد ..

فقد عشت في صحبتك يا رسول الله .. أقطف من زهور حديقتك العطرة الفيحاء .. أتناول بعضا من إنسانيتك ..

عشت مع الكثير من مواقفك الإيمانية الخالدة .. واكتشفت بعد تسجيل سيرتك الطيبة أن ما كتبته ليس إلا قطرة في نهر عظمتك ..

وحسبي أني عشت في صحبتك .. صحبة في القلب .. نسأل الله أن يديمها ويمدها بمدد من عنده حتى نعمل بما جئت به ونجاهد في سبيل الله ، ونشهد برسالتك عند السؤال في القبر .. ونَرد حوضك الشريف فلا نرد عنه فنشرب - برحمة الله وبرحمتك - منه شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدا .. وأن يسعدنا الله بشفاعتك ورفعتك في أعلى الجنان ، في الفردوس الأعلى ..

اللهم صلى على سيدنا محمد في الأولين ، وصلي على سيدنا محمد في الآخرين ، وصلي على سيدنا محمد في كل وقت وحين ، وصلى على سيدنا محمد في الملأ الأعلى إلى يوم الدين ، وصلي على سيدنا محمد صلاة ترضى بها يا رب العالمين ، وسلاما على أزواجه أمهات المؤمنين وآل بيته الأطهار الطيبين ، وأصحابه أجمعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .. واجعلنا معهم برحمتك يا رب العالمين .. اللهم أمين ..

- - -

وبهذا ينتهي الجزء السادس من هذا الكتاب بفضل الله وتوفيقه ..

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين ..

{ المراجع }

- **القرآن الكريم**
- **تفسير الجلالين** . دار التراث
- **تفسير الإمام القرطبي** . الجامع لأحكام القرآن
- **الشيخ محمد رشيد رضا** . تفسير المنار
- **صحيح البخاري** . الطبعة الأولى
- **الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزيه** . زاد المعاد في هدي خير العباد
- **أ . د أحمد عمر هاشم** . من هدي الشريعة
- **ابن كثير** . قصص الأنبياء .
- **أمينة الصاوي** . الكعبة المشرفة
- **الإمام جمال الدين يوسف بن حسن بن عبد الهادي المقدس (ابن المبرد)** . الشجرة النبوية في نسب خير البرية
- **أبو بكر جابر الجزائري** . هذا الحبيب محمد يا محب
- **ابن هشام** . السيرة النبوية تحقيق الدكتور محمد فهمي السرجاني
- **الإمام محمد أبو زهرة** . خاتم النبيين
- **الحافظ بن كثير** . البداية والنهاية

- **رفاعة رافع الطهطاوي** . محمد صلى الله عليه وسلم نهاية الإيجاز في سيرة مساكن الحجاز / دراسة وتحقيق د . وفاء أبو زيد
- **الشيخ محمد متولي الشعراوي** . الهجرة النبوية
- **ابن سعد** / الطبقات الكبرى
- **د . طه حسين** . مرآة الإسلام
- **عبد الرحمن الشرقاوي** . محمد رسول الحرية

قائمة المحتويات

○ الجزء السادس " محمد بن عبد الله بن عبد المطلب " صلى الله عليه وسلم

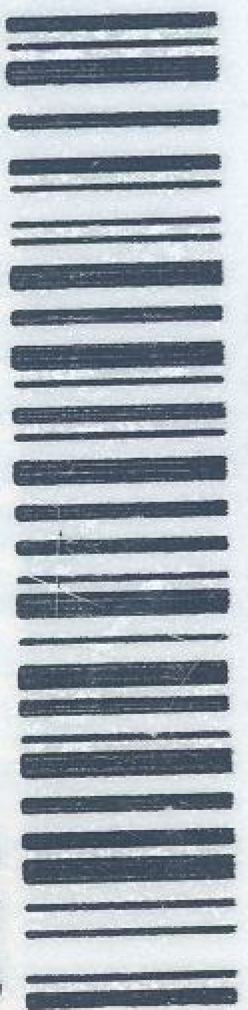


المؤلف

الكاتب الصحفي : محمد حمدي عبد الحميد

- حصل على ليسانس الحقوق من جامعة القاهرة عام ١٩٦٣
- قام بعمل دراسات في الشريعة الإسلامية
- كتب في عدة صحف ومجلات خاصة
- عمل بوزارة العدل والتليفزيون المصري ووزارة الثقافة والحكم المحلي لعدة سنوات ورأس إحدى الوحدات المحلية
- صدر للمؤلف عدة كتب منها :

١. مدرسة الرسول صلى الله عليه وسلم
٢. الصفوة من الصحابة والتابعين
٣. أولو العزم من الرسل
٤. المبشرون بالجنة تحت الطبع
٥. نساء حول الرسول تحت الطبع
ونساء مبشرات بالجنة





الثمن ١٠ جنيهات